

لیو تولستوی - ۱ -

قصّة صمیل

الروحة الكاملة لأول نص ينشر في
العالم للمخطوط الأصلي للرواية الخالدة

المبعوث

مطبعة دار
كتابي



ما قُلت زوجي

اسونا نا الى كرويتن

ترجمة حلمي مراد

مطبوعات

كتابي

الترجمة العربية لشوامخ الكتب العالمية
صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد



الكتاب السادس والسبعون

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة
١١١ ، القاهرة - تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب - ٩٢ شارع قصر العينى ،
القاهرة - تليفون ٣١٨١٠

قضية ضمير

شخصيات الرواية

Dmitri Nekludoff	ديميتري نيكلودوف
Aline Karmaline	آلين كارمالين
Katherine Masslova	كاترين ماسلوا
(Katusha, Lubasha)	(كاتوشا ، لوباشا)
Ephimie Botshkova	ايفيمى بوتشكوف
Simon Ipatoff	سيمون ايباتوف
Comte Shoenbek	كونت شوينبك
Matriona Pavlova	ماتريونا بافلوفا
Marie Ivanova	مارى ايفانوفا
Ivan Smielkoff	ايفان سميلكوف

قضية ضمير

(المخطوط الأول لرواية "البعث")

للروائي الروسي
ليو تولستوي



UN CAS DE CONSCIENCE

Par : Leo Tolstoi

ترجمة : عائدة صادق

مراجعة : محمد بدر الدين خليل

هذه القصة

عزيزى القارئ :

● يقول « الكسندر بوشكين » ، وهو من أعظم شعراء روسيا : « ان تتبع فكر رجل عظيم ، هو « علم » من أكثر العلوم جاذبية ! » .. ولعل هذا القول لا ينطبق على أثر من الآثار الفكرية ، كما ينطبق على أعمال « ليو تولستوى » ، الذى ظلت كتبه موضع اهتمام الناشرين والنقاد ودارسى الأدب ، برغم مرور ستين عاما على وفاته .. ومرة أخرى ، لعل ذلك القول لا ينطبق على عمل من أعمال « تولستوى » الادبية ، قدر انطباقه على روايته « البعث » بالذات .

ذلك لأن دراسة نصوص هذا العمل العظيم « البعث » ، نسا بعد نص ، تكشف لنا فى وضوح شديد تطور الفكر لدى ذلك الروائى الروسى ، الذى كان يخص هذه القصة بالذات باهتمام عاطفى متميز ، نظرا لأنه عاش فى شبابه حوادث فاجعة تشبه - فى كثير من تفصيلاتها - تلك التى عاشها « نيكلودوف » ، بطل روايته « البعث » ! وقد اعترف « تولستوى » قبيل وفاته ، لصديقه الحميم « يروكوف » - الذى كان يتولى نشر مؤلفاته - بأنه كان قد اغوى فى شبابه خادما صغيرة السن ، ثم تخلى عنها هو واهله ، فلم تلبث أن ماتت تحت وطأة اليأس والبؤس !

تلك الذكرى الأليمة - التى لم يكن يعرف سرها فى البداية

سوى زوجته « صوفى اندريفنا » - ظلت تلاحقه ، حتى دفعت به الى ان يحاول كتابة قصة تتناول هذا الموضوع ، على ضوء ما انطبع في نفسه . وفى يوم ١٥ ديسمبر من عام ١٨٨٩ ، كتب فى مذكراته هذه العبارة : « بدأت أمس كتابة قصة طويلة ، واننى لأجد فى تدوين أحداثها متعة كبيرة » . . . ولكنه لم يكد ينتهى من الفصل الأول منها ، حتى توقف عن المضي فيها ، وأهملها تماما !

ثم صادف - بعد خمس سنوات - أنه كان يبحث فى أحد ادراج مكتبه ، ففوجئ بالأوراق القليلة التى كان قد كتبها من تلك القصة . وما ان قرأها ، حتى استيقظ اهتمامه بها ، وانهمك من جديد - وفى حماس شديد - فى انجازها . وهكذا ولدت هذه القصة القوية التى تستمد جذورها من واقع حياته وذكريات شبابه ، وقد جعل عنوانها « قضية ضمير » !

ولقد أتم « تولستوى » كتابة القصة ، فى أول يوليو عام ١٨٩٥ . . . ولكنه بدلا من أن يدفع بها الى المطبعة ، ألقى بها جانبا ، ولم يعد يفكر فى نشر هذا الأثر العظيم . واذا أخذ اهتمامه يتزايد بالمسائل الاجتماعية والدينية ، كان لا يفتأ يعود الى هذه القصة ، فيجرب فيها تعديلا بعد تعديل ، وتبديلا بعد تبديل ، مغيرا من أفكاره وآرائه ، ومطورا فى نظرياته الاجتماعية والدينية ، دون افتئات على الفن القصصى ، حتى استقر على شكل نهائى لها ، بعد أربع

سنوات ، كتبها خلالها تسع مرات ! وفي كل مرة كان يبدل ويغير في سياقها وأحداثها .. حتى نشرها على العالم في صورتها النهائية ، وسماها « البعث » !

وعندما نشرت « البعث » ، في سنة ١٩٠٠ ، في مجلة « نيفا » Niva - التي كانت تصدر في (سانت بطرسبورج) - لم تكن تحمل شيئاً من ملامح القصة الأولى « قضية ضمير » .. كان كل شيء قد تغير فيها : البداية ، والنهاية ، والاطار العام ، والتحليل النفسى للأبطال .. بل وأسماء أغلب شخصياتها .

وظل النص الأول لقصة « قضية ضمير » ، مطويا في أدراج النسيان ، بينما راج النص الأخير - الذى حمل اسم « البعث » - وتوالت منه الطبعات ، وترجم الى معظم اللغات الحية ، وأخرج في السينما ..

وفي سنة ١٩٣٤ ، قدر لقصة « قضية ضمير » ان تظهر .. فقد نشرها « متحف تولستوى » في سلسلة « نصوص لم تنشر » ، ضمن المطبوعات الادبية التى تصدرها اكاديمية الدولة فى الاتحاد السوفيتى ، وقد صدرتها الاكاديمية بهذه العبارة : « النص الأول لقصة البعث » .

وقد تبين أن المصادفة وحدها هى التى قدرت لهذا العمل الادبى أن يبقى ، وأن يظهر .. اذ عثر على النص الخطى له - فى الثلاثينات من هذا القرن - فى قبو احدى البنايات العديدة ، فى ضيعة تولستوى (ياسنايا بوليانا) Iasnaia Poliana ، التى آلت ملكيتها الى « متحف تولستوى » ،

(وهو الهيئة التى تتولى التنقيب المستمر ، فى جميع المناطق التى عاش فيها « تولستوى » ، عن آثار وأوراق هذا الكاتب الخالد الذكر) .. وقد استطاعت هذه الهيئة أن تسجل نتائج أدبية عظيمة القيمة ، فى تنقيبها ، منها العثور على هذا النص الذى لم يترجم من قبل الى أية لغة حية - أو غير حية - سوى الفرنسية ..

وقد شاعت المصادفة وحدها - أيضا - أن أعثر على الترجمة الفرنسية لهذا النص ، فى نسخة نادرة من الطبعة الأولى والوحيدة لهذه الترجمة .. وهى الطبعة التى نفدت فور صدورها ، ولم يعد طبعتها ثانية حتى اليوم - لسبب لا أعلمه - كما أنها لم تترجم الى الانجليزية ، فيما أعلم ، لسبب أجهله أيضا .. ولعل هذا السبب أن يكون قيذا من قيود الاحتفاظ لناشر « البعث » بحقوق الانفراد بنشر الرواية فى صورتها الأخيرة المتطورة ، وان كنت أرى أن الصورة الأولى التلقائية للرواية - وهى التى تقرأ ترجمتها الكاملة فى الصفحات التالية - قد تكون أقرب الى الصدق والواقع من الصورة النهائية لـ « البعث » .

والآن ، أتركك أيها القارئ لتستمتع بقراءة « قضية ضمير » .. ولن أياس من مداعبة الأمل فى أن يتاح لى ، يوما ما ، أن أقدم لك - أيضا - الترجمة الكاملة للرواية الشقيقة « البعث » .. ويومئذ تستطيع المقارنة بينهما بنفسك .

حلمى مراد

والله ولى التوفيق .

الفصل الأول

يوم مشير

● **تمتم** « ديميتري نيكلودوف » Dmitri Nekludoff في سره : « يا الهى ! ما اكثر الخطابات الواردة اليوم ! » .. كان قد جلس يرتب البريد والأوراق التى تنتظره ، على مائدة يكسوها غطاء أبيض ، وهو يتناول - الى جانب ذلك - أفطاره من القهوة الممزوجة باللبن ، وبعض الفطائر . وقالت له مربيته العجوز : « لقد استيقظت اليوم متأخرا يا سيدى ، على غير عادتك ، وهنالك من ينتظرك منذ فترة طويلة » .. فرد عليها « نيكلودوف » ، وهو يفحص البريد على عجل : « سأحضر حالا يا مربيتى العزيزة .. حالا ! » .. ثم سألها بعد برهة ، وهو يجذب خطابا من بين الأوراق ، كان خطه الجميل - على صفحة من الورق الرمادى السميك - معروفا لديه : « أهو خادم آل كارمالين ، الذى ينتظرنى ؟ » .. ثم أردف ، وقد حدثته نفسه بأن الخطاب الذى خصه بعنايته يحتوى على ما يسره : « ولماذا ينتظرنى ؟ » .. فأجاب العجوز ، وهى تهز رأسها وتغمز بعينها : « انه ينتظر ردك بالطبع . وقد قدمت له الشاى ! »

كان الخطاب من « آلين كارمالين » Aline Karmaline التى ربطت بينها وبين « ديميتري نيكلودوف » ، منذ أمد ، صداقة حميمة وثيقة ، من النوع الذى يمكن أن يتحول - بكلمة ، أو بايماءة - الى خطبة ، وزواج !

وكانت الصداقة بين عائلتى « نيكلودوف » و « كارمالين » ترجع الى عهد بعيد ، عندما كانت مدام « كارمالين » ومدام « نيكلودوف » تعيشان فى تفاهم وود ، وتكن كل منهما للأخرى تقديرا كبيرا . وكان الطفلان يلعبان معا - دون

ما كلفة ، وبمحض رغبتهما - كما يفعل اى صبي فى الرابعة عشرة وأية فتاة فى الثامنة من عمرها .

ثم قدر للعائلتين ألا تتزاورا الا نادرا ، اذ سكنتا - ردحا من الزمن - مدينتين مختلفتين ، فلم تعودا الى التلاقى من جديد ، والى تجديد علاقاتهما القديمة ، الا فى سنة (١٨٨٩) ، حين آثرت مدام « نيكلودوف » أن تقيم - فى العام الأخير من عمرها - مع ابنها فى العاصمة ، وكان من عادة آل كارمالين الا يغادروا موسكو بتاتا ، وهكذا اجتمع شمل الأسرتين . ثم شاءت الظروف أن يزداد « ديميتري » تقربا من « آلين » خلال مرض أمه ، ثم بعد موتها بوجه خاص . فتوثقت الروابط بين الشاب والفتاة ، الى حد يشر بالزواج !

ولكم كانت مدام « نيكلودوف » تتمنى - من صميم قلبها - هذا الزواج . . وكذلك كانت مدام « كارمالين » . بيد أن رغبة « آلين » فى تحقيق تلك الأمنية كانت أقوى ، فكانت لا تفتأ تردد أنها لم تحب فى حياتها شخصا كما أحبت « ديميتري نيكلودوف » ، وأن الشاب كان حريا بأن يطلب يدها منذ وقت طويل ، لولا ما عاقه من تردد !

ولقد قررت « آلين » فى البداية ، بينها وبين نفسها ، أن تروض « ديميتري » ، (أو أن تهذب من طباعه ، على حد تعبيرها) . كانت تريد اصلاحه ، ولم يكن هذا بمعنى أن تخلصه من بعض العيوب - اذ أنها كانت تؤمن بأنه انسان فاضل ، بل انسان مثالى - وانما كانت تبغى أن تخلصه من بعض تصرفاته الغريبة ، ونزواته ، وشطحاته . . فسعت الى محو ما يتنافى مع ظرفه وتناسق طباعه ، دون أن ينال ذلك من معدنه الاصيل الطيب . واندفعت « آلين » فى هذه المحاولة بكثير من الرضا والتحمس ، مما أوقعها فى حبه دون أن تدري . . فما لبثت أن وجدت قلبها يخفق بحب « ديميتري » ، وهى التى رفضت - من قبل - أربعة رجال

تقدموا لخطبتها ، كان كل منهم افضل من الآخر .. بل انها كانت قد قررت الا تتزوج قط ، لتهب نفسها للفن .. للموسيقى التى أحبتها الحب كله ، والتى أوتيت مواهب واستعدادا لها لا يبارى .. واذا بها تتدله فى هوى « نيكلودوف » الى درجة أصبحت تخشى معها ألا تقوى على أن تتعمق فى حبه بدرجة كافية .. كانت تشعر - كلما ازدادت حبا - أن فى الحب متسعا لمزيد !

ولقد انقضت ثلاثة أشهر على وفاة مدام « نيكلودوف » . وبرغم قسوة المصاب ، فان الآلام التى خلفها لم تكن كافية لتفسير الصمت الغريب الذى طرأ على « ديميتري » . إذ أنه لم ينبس بكلمة ، مع أن تقديره للعلاقات التى ربطت بينه وبين الفتاة لم يكن منكورا .. مما جعلها تعاني كثيرا من الضيق !

وما كان امسك « ديميتري » عن البوح بمكنون قلبه ، الا لانه كان نهبا لعاطفتين متناقضتين : اولاهما أنه لم يكن قد أحب « آلين » بدرجة تكفى لأن يقرر التضحية بحريته ! .. وثانيتهما أنه كان يضع فى حسابه أن سنه قد بلغت الرابعة والثلاثين ، وأن ماضيه لم يكن فوق كل شائبة ، وأنه لم يكن قد أثبت بعد ما لديه من إمكانيات وقدرات . وبوجه عام ، لم يكن قد مارس فى حياته عملا على الإطلاق ! .. وكان - إذ يدرك ذلك كله - يجد نفسه غير جدير « بآلين » الطاهرة ، الموهوبة ، الظريفة ! .. لذلك لم يجرؤ على التقدم لطلب يدها ، لانه ظل مترددا فى قرارة نفسه ، ولانه خشى أن يقابل بالرفض .

.. وأخيرا قال لمربيته ، وهو يلقي نظرة عاجلة على الرسالة : « سأذهب لأرى الزائر يا مربيتى العزيزة ! » .. وراح يقرأ - بين سطور الرسالة - هذه الكلمات :
« وفقا لوعدى اياك بأن أعيذك على تذكر مواعيدك ،

أذكرك بأن عليك اليوم - الثانى والعشرين من ابريل - أن تحضر جلسة المحكمة . ومن ثم فلن تتمكن من مصاحبتنا - مع السيد « كولوزوف » - الى معرض « تريجاكوف » (كما وعدتنى بالأمس ، بتسرعك المعهود) ، **إلا إذا كنت على استعداد لدفع ثلاثمائة روبل غرامة (١) ،** جزاء تخلفك عن الذهاب الى المحكمة فى الموعد المحدد ، وقد تذكرت ذلك بالأمس ، بعد أن تركتنا مباشرة .

وصاح نيكلودوف : « آه ! هذا صحيح !.. لقد نسيت هذا الأمر تماما » . ثم أعاد قراءة الخطاب ، والابتسامة تتراقص على شفتيه ، وأردف : « يجب أن أذهب الى المحكمة .. كيف نسيت ذلك ؟ »

ونفض عن المائدة ، واقترب من مكتبه ، فأخرج من درجه كومة غير منسقة من الأوراق ، والصور ، والسجائر ، وغير ذلك .. وبعد بحث ، عثر على خطاب رسمى يدعو - بوصفه عضوا فى هيئة المحلفين - لحضور جلسة الثانى والعشرين من ابريل . ونظر « ديميتري » الى ساعة الحائط البرونزية ، فوجدها تشير الى التاسعة والرابع ، وكان عليه أن يكون فى المحكمة ، فى العاشرة على الأكثر ، كما ورد فى الخطاب الرسمى .

ورجع ديميتري الى المائدة ، حيث ظل الفطور فى انتظاره ، فملاً نصف قدح بالقهوة ، وأضاف اليها بعض اللبن ، ثم قضم قطعة من الفطير ، وهو يقرأ خطاباً آخر صادراً من الخارج . كان مرسلًا من دير « آثوس » ، لطلب اعانة مالية ، فالتقى به فى غيظ .. ثم تناول خطاباً ثالثاً ، يحمل خاتم بريد مدينة (ريازان) فإذا به من تاجر بهذه المدينة ، يطلب إليه تجديد عقد ايجار ضيعة (راتينبورج) ، التى كان هذا التاجر يستغلها طيلة السنوات الخمس الأخيرة .

(١) كتبت هذه العبارة - فى الاصل - باللغة الفرنسية .

● كان « نيكلودوف » يقيم في موسكو ، في مسكن كبير فاخر ، مع مربيته العجوز ، واثنين من الخدم - أحدهما طبّاخ ، والآخر وصيف (خادم خاص) - كما كان شأنه قبل وفاة والدته ، وان لم تكن حياة الفراغ والخمول في موسكو تتفق مع ميوله على الإطلاق . ولقد أقعده الحزن على أمه - في بداية الأمر - عن الشروع في أى عمل ، ولكنه لم يلبث أن اعتاد شيئاً فشيئاً ، ودون أن يفتن ، هذا النوع من الحياة ، فانساق اليه دون مبالاة .

كذلك كانت تستبقه في موسكو تلك الروابط القوية التى توطدت بينه وبين آل « كارمالين » . ولقد بذل آل « كارمالين » - في بادىء الأمر - كل جهودهم لأواساته ، فكان يهز مشاعره أن يراهم يبسّ الفون في تقدير حزنه . ولم يكن بوسعهم أن يرفض ما كانوا يفخرون به من عواطف .. وما لبثت مواساتهم أن زادت قرباً منهم - ومن « آلين » بوجه خاص - حتى بات يشعر بأنه مرتبط بها ، عاجز عن وضع نهاية لتلك الصداقة الغالية ، وعن مبارحة العاصمة ! ولقد كان يظن - فيما مضى - أن والدته وحدها هى التى كانت تضطره الى هذا اللون من الحياة ، وأنه كفيل بأن يتعرض لتغيير جوهرى بعد وفاتها . ومع ذلك ، فما قد انقضت ثلاثة أشهر على موت مدام « نيكلودوف » ، و « ديميتري » سادر في نفس اللون من الحياة !

وكان لزاماً عليه أن يعترف - برغم ما يسببه له ذلك من ألم - بأن وجود والدته التى كان يحبها ويحنو عليها ، قد عاقه عن تحقيق ما ظل سنوات يصبو اليه من مشروعات . اذ كانت لمدام « نيكلودوف » فكرة محددة عن الوضع الذى تمنته له : وهو أن يقضى كل وقته - طيلة حياته - وسط هذا المجتمع الروسى ، الخاص ، المغلق ، الذى شهد مولده ، والذى كان كل فرد فيه يعرف الآخر معرفة تامة ، . وبمعنى

آخر ، كان عليه أن يتلقى دخلا قدره عشرة آلاف من الروبلات ، وأن يشغل منصبا هاما ، وأن يصبح - فوق كل شيء - شخصية ممتازة ! .. وبمعنى ثالث ، كان عليه أن يمتاز عن المؤلف : فى عاداته ، وميوله ، واناقة ثيابه ، وأخلاقه ، دون أن يختلف فى شيء عن أبناء طبقته ، من حيث المعتقدات ، والسلوك - بل ومن حيث لهوه ومرحه أيضا ! - وأهم من ذلك كله ، أن يتزوج بفتاة من طبقته ، وأن تكون له أسرة كفاء لتلك التى انحدر من صلبها !

بيد أن « ديميتري » - شخصا - كان يصبو الى شيء يختلف تماما عن هذا . كان منذ سنوات صباه ، وطوال فترة دراسته بالجامعة ، يذم - بدون هوادة - ذلك الطابع الخاص لما يسمونه « المجتمع الراقى » ، ويعارض بكل ارادته آمنيات والدته وأهدافها ، فأخذ يخالط أفرادا كانت مدام « نيكلودوف » تعجز عن حفظ أسمائهم ، وكانوا - اذا جلسوا فى حجرة الاستقبال - يفوضون فى مقاعدهم دون لياقة .. وفى حجرة المائدة ، كانوا يجلسون اما متباعدين جدا ، أو متقاربين جدا ، ويتكئون على المائدة بسواعدهم .. وقصارى القول انهم كانوا غريبى السلوك !

على ان هذا كان أمرا هينا نسبيا .. والأنكى منه أن « ديميتري نيكلودوف » وجد من الوقت ما يكفى لقراءة كتابى : « المشكلات الاجتماعية » و « التقدم والفقر » لهنرى جورج . وما ان فرغ منهما ، حتى كان قد اقتنع بأن المؤلف كشف حقائق عظيمة ، وأن امتلاك الأرض جريمة ، وأنه أمر لا يقل خزيا عن امتلاك العبيد ، ومن ثم فعليه أن يتخلص من ضياعه فى أقرب فرصة ! .. وكانت مدام « نيكلودوف » تدعن لابنها فى كثير من النقاط ، كما كان « ديميتري » من ناحيته يخضع لارادتها فى أمور أخرى : من ذلك أن أمه وافقته على أن يهجر الجامعة ، التى قرر الانصراف عنها مذ تبين أن المرء

لا يتعلم فيها ما يساير الحياة الحقيقية ، وانما ما يتلاءم مع الأوضاع القائمة فحسب . . كذلك سمحت له أمه بالسفر الى الخارج . . ومن ناحيته هو ، رضخ لارادة والدته ، فعدل عن عزمه على منح الفلاحين ضيعته الصغيرة التى ورثها عن والده ، ووافق على أن ينتظر - على الأقل - حتى يبلغ سن الرشد .

وعندما سافر « ديميتري » الى الخارج ، كى يدعم افكاره عن الطبيعة الاجرامية للملكية - مهما يكن نوعها - تبين لفرط أساه ، أنه يوجد هناك عين ما فى روسيا من بلبله ذهنية وتردد . كان القوم يتجاوزون - فى صمت - مسألة الملكية العقارية ورأس المال ، ليخوضوا بحرارة مجادلات بلهاء بصدد احتساب يوم العمل ثمانى ساعات ، والتأمينات الاجتماعية ، وغيرها من اجراءات تقصر عن تعديل حالة الطبقة العاملة . واذ خاب أمه فى تدعيم آرائه فى أوروبا ، راح يفكر فى السفر الى امريكا ، واذا أمه ترجوه أن يعود . . فأعرب لها عن اعتزامه السفر الى (هايدلبرج) لدراسة الفلسفة . غير أنه لم يلبث أن عاد الى روسيا ، لأن أسلوب التدريس - الذى كان الأساتذة الألمان يتبعونه - لم يرضه . وفى روسيا ، أثار بالغ الحزن لدى أمه ، اذ أقام فترة عند عمته ، فى الريف . . ليؤلف - فى هدوء تام - كتابا عن آرائه الاجتماعية !

بيد أن مدام نيكلودوف ، استطاعت أن تحثه على العودة الى (سانت بطرسبورج) ، حيث وثق صداقته مع الكونت (شوينيك) Shoenbek - صديق طفولته - الذى كان قد أتم دراسته ، وانخرط فى احدى كتائب الحرس . وعن طريقه ، تعرف « ديميتري » على كثير من الأصدقاء ، واندفع فى كافة ألوان لهو الشباب ، وقد نسى البرنامج الذى أعده لدراسته ونشر آرائه !

أما والدته ، فلم تكتف باغماض عينيها عن حماقات ابنها

فحسب ، بل راحت تشجعه . وكانت تقول له : « يجب أن يستمتع المرء بشبابه .. أن يحظى بكل ما للشباب من حقوق ! » .. وأخذت تدفع عنه ديونه راضية ، وتمنحه من المال مشتهاه .. غير أن « ديميتري » - وقد تذوق لذة الحياة الفكرية من قبل - كان شديد السخط على نفسه ، ولم يقنع بالاكْتفاء بحياة (سانت بطرسبورج) الصاخبة !

وفى تلك الاثناء ، اندلعت الحرب بين روسيا وتركيا ، فانضم « ديميتري » الى احدى الكتائب ، وسافر الى الجبهة ، برغم شدة معارضة والدته . وظل فى صفوف الجيش العامل حتى نهاية الحرب ، ثم قضى عاما آخر فى (سانت بطرسبورج) ، حيث انضم الى احدى كتائب الحرس . ولكن حياة الفراغ التى عاشها فى العاصمة ، كانت قد جعلته يشغف بلعب الورق ، ففقد الضيعة التى ورثها عن أبيه . وشعر باستياء لم يخامره مثله من قبل ، فهجر (سانت بطرسبورج) ، ليقیم فى احدى ضياع أمه . وما لبث أن غادر الريف وذهب ليعيش فى موسكو .



● شعر « ديميتري » باضطراب ، للرسالة الواردة من (ريزان) ، والتى ذكرته بكل تلك الأحداث .. وبذل مجهودا - ليس بالقليل - لكى يفهم تلك الحالة الذهنية التى سببت له من الحيرة فوق ما كان يود . فقال لنفسه : « يجب أن أجاو هذا الأمر على أية حال . حسنا ! ها هو ذا التاجر يرجونى أن أجدد له الاتفاق ، أو بالأحرى أن أجدد صك العبودية المفروضة على فلاحي ثلاث قرى ! الآن فهمت ... يجب أن أفكر فى الأمر طويلا . الواضح أننى لا أستطيع أن أهب أرضى للفلاحين ، لأتمتع - بعد ذلك - بهمتلكات زوجتى المقبلة ! »

وزاده ضيقا ، أن الحجج المبهمة - التي كان يحاربها في الماضي بكثير من الحماس - فرضت نفسها عليه فجأة .. فرأى أنه من المستحيل على امرئ أن يناضل وحيدا ضد نظام قائم ومقبول لدى الجميع .

وصاح ديميتري : « لا ! .. لا أريد أن اكذب ! بل يجب ألا اكذب ! .. كل ما في الأمر ، هو أنني لا أستطيع أن أتخذ - في الوقت الحاضر - أي قرار حاسم . ولكنني ، بمجرد أن أفرغ من مهمتي في المحكمة ، سأخذ قرارا - مهما يكن - بصدد آلين ! » .. واذا راودته هذه الفكرة ، شعر برغبة لذيذة تسرى في أوصاله . فأخذ يتمثل « آلين » ، ويتذكر وجهها وكلماتها .. وقرا خطابها مرة أخرى - وهو يبتسم - ثم عاد يقول لنفسه : « نعم ، نعم ، هذا ما ينبغي ! يجب أن أنتهى من ذلك على أية حال .. هذا ما أفضله على ما عداه .. وفي هذه الحالة ، يحسن أن أرحل الى الريف ، لأفكر مليا في الوضع الذي أجدني فيه ! »

كان يشعر بأنه مرتبط بآلين .. وبالتالي ، كان كل ما تبقى من وجوده ، لا يتوقف على شيء قدر توقفه على الطريقة التي يجب أن يعالج بها علاقته بهذه الفتاة .

وللمرة الألف ، قال لنفسه : « أجل . من الواضح أن المرء لا يستطيع أن يسلك أربع طرق في وقت واحد .. فمند اليوم الذي سأقرر فيه منح أراضي لفلاحى (ريزان) ، يجب أن أفعل الشيء ذاته بالنسبة لفلاحى (نيجنى - نوفجورود) و (سمارا) .. وفي هذه الحالة لن يتبقى لى شيء ! .. كل هذا كان من الجائز أن يعد تصرفا حسنا جدا فيما مضى ، عندما كنت بهفردى ، وكان بوسعى أن أكتفى بالقليل . أما وأنا اعتزم أن أتزوج ، فالأمر يختلف . وهنا كل المشكلة ! .. هذا هو الأمر الذى يضايقنى ! .. يجب أن أفكر ، ولنترك الأحداث

تسير في مجراها الى أن يتسنى لى الوصول للعلاج . . لست أملك أن أفعل غير ذلك !»

ومن ثم لم يرد « ديميتري » على رسالة المزارع . أما بالنسبة لمذكرة « آلين كارمالين » ، فقد رأى لزاما عليه أن يكتب للفتاة شاكرًا ، لأنها ذكرته بواجبه - اذ كان في الواقع قد نسى هذا الموعد تماما ! - وقرر أن يبذل كل ما في وسعه ليذهب لرؤيتها في ذلك المساء .

وكتب رسالة الشكر لها ، وعهد بها الى أحد الخدم ، ثم ارتدى ملابسه على عجل ، وانطلق الى المحكمة .



● كان لزاما على « ديميتري » - وفقا لخطاب الاستدعاء الرسمى - أن يكون في المحكمة في العاشرة صباحا على الأكثر . ومع ذلك ، فقد كانت الساعة العاشرة والرابع عندما هبط من العربة في فناء كبير مرصوف بالأحجار ، تحف به أرصفة مغطاة بالقار ، ويؤدي الى الباب الرئيسى للمبنى . . وكان هناك أناس من كافة الطبقات ، فمن رجال ذوى مظهر ممتاز ، الى تجار وفلاحين يروحون ويفدون في كل الاتجاهات ، ويصعدون درجات السلم ويهبطون ، ويجوسون خلال الردهات ، ويقفون أفواجا أمام الأبواب . . وكان ثمة حجاب - في زى أزرق ذى ياقة خضراء - يسرعون الخطى عبر الردهات ، حاملين أوامر القضاة ، أو مرافقين الزوار ، يرشدونهم خلال أرجاء المبنى .

واتجه « نيكلودوف » الى أحد الحجاب ، وسأله عن مكان انعقاد المحكمة ، فأجابه الحاجب في لهجة معاتبة : « عن أى محكمة تتكلم ؟ . . هناك محكمة الاحالة ، ومحكمة الجنايات ، وغرفة الإتهام ، وغيرها . . فأيتها تريد ؟ »

- محكمة الجنايات ، وهيئة المحلفين .

— كان يجب أن تذكر هذا .. تفضل من هنا ، الباب الرابع الى اليسار !

واتجه « نيكلودوف » الى الباب المذكور ، ولكنه صادف — قبل أن يبلغه — حاجبا آخر سأله عما اذا كان عضوا في هيئة المحلفين ، فلما رد بالإيجاب ، أرشده الى قاعة المحلفين ، عند ملتقى الردهات .

وكان هناك رجلان يقفان عاربي الرأس ، عند باب القاعة : كان احدهما تاجرا ، ضخّم الجسم ، بدينا ، أصلع ، تبدو على وجهه سمات الطيبة ودماثة الخلق .. وكان الثاني أشعث الشعر ، ذا لحية صغيرة سوداء ، تنم سماته عن انتمائه للعنصر السامى ، ويشبه — الى حد كبير — عمال المتاجر . قال التاجر لنيكلودوف : « انت من المحلفين ؟ .. أى منا ؟ »

— نعم ، اننى محلف .

قال الاسرائيلى : « وانا الآخر » .

— اذن ، فسنؤدى مهمتنا معا .

قال التاجر : « هذا ما ينبغى » .

ودلف « نيكلودوف » الى القاعة ، حيث اجتمع خمسة عشر محلفا . وكان من الواضح انهم جميعا قد حضروا لتوهم ، اذ راخوا يتأملون القاعة ، ويتبادلون النظر بعضهم الى بعض ، ويتعارفون .. ووفد فى أعقاب « نيكلودوف » — مباشرة — حاجب يرتدى الزى الرسمى ، ويضع على عينيه منظارا ، فوقف عند المدخل ، وخاطب أعضاء هيئة المحلفين قائلا : « ايها السادة ، انكم هنا فى داركم ! .. تستطيعون أن تتصرفوا فى هذه القاعة كما يحلو لكم ، واذا احتجتم الى أى شىء ، فسيكون الساعى « اوكونيف » دائما تحت أمركم ! » وبعد أن رد الحاجب على بعض الأسئلة التى وجهت اليه ، أخرج من جيبه ورقة ، وأخذ ينادى أسماء المحلفين :

— مستشار الدولة « ايغان ايغانوفتش نيكيفوروف » !
ولكن احدا لم يجب .. فانتقل الى الاسم التالى :
— الكولونيل المتقاعد « ايغان سيميونوفتش ايغانوف » !
— حاضر !

— بير ديوساروف !
وأجابه صوت خافت : « حاضر ! »
— الطالب سابقا ، الأمير « ديميتري نيكلودوف » !
وأجاب نيكلودوف : « حاضر ! »

وانسحب الحاجب بعد أن كتب أسماء المحلفين الغائبين .
وما ان أقفل الباب خلفه ، حتى أخذ المحلفون — بعد ان
تعارفوا — يتناقشون فى موضوعات القضايا التى كانت فى
انتظارهم .. كانت هناك قضيتان خطيرتان ، وسط قضايا
أقل أهمية ، وفقا لما قاله واحد منهم ، بدأ أنه كان قد استطلع
الأمر .. وكانت احدى القضيتين تتعلق بعملية نصب
وبتصرفات مبهمة لأحد المصارف تثير الشبهات .. أما الأخرى ،
فكانت تتعلق بجماعة من الفلاحين ، تمردوا ضد السلطات .
وراح المحلف يتكلم عن العدالة وهو بادى السرور ، وكأنه
على معرفة وثيقة بالقضاء . اذ كان يذكر أسماء القضاة ،
والنائب العام ، وأشهر المحامين الذين سيشترون فى القضايا ،
مستعملا المصطلحات الفنية ، مثل « الاجراءات » و « محكمة
النقض » ، موردا فقرات من القانون ، وزملاؤه يصفون اليه
باحترام .

لكن « نيكلودوف » كان مستغرقا ، بكل كيانه ، فى
أفكاره الخاصة ، التى كانت مقتصرة — تقريبا — على « آلين
كارمالين » ! .. راح يفكر فى رسالتها التى تسلمها فى الصباح ،
وفى الرغبة التلقائية لديها فى أن تساعد على تذكر أعماله
ومواعيده ، وفى الدعوة الى الغداء — بعد المحكمة — وفى أمور
أخرى ، كانت كلها مما يتجاوز حدود الصداقة العادية .

كان « نيكلودوف » - في الحقيقة - « دقة قديمة » بعض الشيء (١) . فلم يكن يتشدد بآراء « عصرية » ، وكان على تقيض شباب اليوم ، لا يرى أن كل امرأة تسارع الى اقتناص أول لحظة تسنح ، لتستسلم للرجل . . ولا كان يعتقد أن كل فتاة - في سن الزواج - تنتظر أية إشارة منه ، لترتمى على صدره . . بل انه كان - على العكس - يرى أن كل سيدات وسطه (ومن المؤسف أنه لم يكن يفكر الا في سيدات المجتمع الراقى !) مخاوقات لسن أقل استقامة أو شاعرية ، أو رقة ، أو طهرا ، عن والدته . . وعما ينبض أن تكون عليه زوجته المقبلة . وكان هذا سر الخجل الشديد الذي اعتاد أن يعروه بمجرد التقائه بفتاة تعجبه ، ويتمنى أن يتزوجها ! . . وكان يعتبر نفسه شخصا تافها ، لا قيمة له ، لا بسبب ما كان يراه في نفسه من « انحطاط » واضح ، اذا قيس ببراءة الفتاة ، وانما أيضا بسبب نقص صفاته المادية والمعنوية عن تلك التي كان يصفىها على الفتاة التي « قد » تصبح خطيبته !

وبرغم هذه الأفكار ، كان « نيكلودوف » قد شرع - منذ فترة - في اقناع نفسه بأن « آلين » ما كانت لترفضه ، مهما تكن عيوبه ، اذا هو قرر - في النهاية - أن يطلب يدها . والواقع أنه أصبح راغبا في الزواج ، بعد أن بدأ يضيق بحياة العزوبة ، بما فيها من خير وشر ومتناقضات ومشكلات متعارضة . ومن جهة أخرى ، كانت « آلين » تفتنه وتجذبه اليها بشبابها الغض وسحرها الغامض ، وبوعود لم يستطع أن يظن الى سرها بعد . ولكنه في نهاية المطاف ، كان يجد - بما اعتاده من صراحة مع نفسه - أن عليه أن يقرر ما اذا كان يحب « آلين » أو لا يحبها !

كان قادرا على أن ينساها ، اذا بقي فترة من الوقت دون

ان يراها . أما عندما كان يكثر من رؤيتها — كما كانت الحال في تلك الفترة الأخيرة — فانها لم تكن تبرح خياله أبدا . وكان يعجب — في أحلامه — بابتسامتها المشرقة ، ويسمع صوتها . . كان يتمثلها بصورة شاملة ، ولكنه كان يعجز عن تمييز قسّمات وجهها وتفصيلات جسدها . . كان يراها وقد فرغت من عزف المقطوعات الموسيقية التى يحبها ، وأخذت تنهض عن المعزف ، ووجهها متورد ، فترمقه طويلا — وعيناها في عينيه — وهى مضطربة المشاعر ، دون أن تقوى على التحول عنه . . وفى هذه اللحظات ، كان يشعر براحة غامرة وابتهاج متألق ، فى قربها . . فلا يرتضى أن يفرقه عنها شىء فى الدنيا بأسرها !

وهكذا راح يفكر ، فيها هو جالس فى قاعة المحلفين . . يفكر فى الطريقة التى سيطلب بها يدها ، اذا ما أقدم . . أين ؟ . . وكيف ؟ . . وبأى أسلوب ؟ . . وماذا يكون تصرفها ؟ . . هل ستدهش لذلك ؟ هل ستغضب ؟ . . ومن جديد ، تمثلها أمامه ، وسمع صوتها !

وقال لنفسه : « كلا . . كلا . . لا ينبغى التفكير فى هذا . . لن تقودنى تأملاتى الى شىء . اذا كان لزاما أن تنتهى علاقتنا على نحو ما ، فليكن ذلك تلقائيا ! »

وعند هذا الحد ، نهض من مكانه ، ودلف الى الردهة . كانت الحركة من حوله تزداد شيئا فشيئا . . فالسعاة — برغم كبر سنهم — يروحون ويجيئون فى كل الاتجاهات ، حاملين الأوراق فى أيديهم . . والحجاب والقضاة والمحامون يسرون حوله . . وهو يشعر بذلك الاستفراق الذى كان ينتابه عادة فى الكنيسة ، أثناء القداس . ولكنه فى الوقت ذاته — وبرغم ما خيل اليه من خلو رأسه من كل انتباه — كان يعى كل ما يدور حوله بكل دقائقه ، وبوضوح غير عادى !

.. فهذه امرأة ارتدت قبعة غريبة الشكل ، مزدانة بزهرة

صفراء ، وقد جلست على أريكة تستشير محاميها .. هي تتكلم بدون انقطاع ، والمحامي يحاول عبثا أن يقتنص لحظة تكف فيها عن الحديث ، ليلقى إليها باجابه التي أعدها من قبل .. وهذا ساع يبدو أنه تسلسل ليشعل سيجارة في الخفاء ، ولكنه أسرع يعترض شابا أراد دخول مكان غير مباح للجمهور دخوله .. أما هذا القاضي السمين ، الذي انتفخ وجهه من فرط ما به من شحم ، وكسا الشعر الأبيض المجعد قفاه ، وبدت ساقاه مقوستين ، فقد انطلق في الردهات التي شهدت مراحل عمره ، وهو يرتدى وشاحا قديما ، وقد حمل حقيبة أوراقه في يده .. وها هو ذا محام شهير ، في أبهى أناقته ، ينظاھر — كما يفعل الممثل قبل أن يبدأ دوره — بأنه لا يفتن الى أن كل العيون مسلطة عليه .. وهذا وكيل نيابة أعجف ، في ستره بدون أزرار ، يحمل حقيبته تحت ابطه ، ويؤرجح يده الخالية بهمة ترتفع بها الى طول جسمه ، وقد انطلق في الردة بخطوات سريعة ، وهو يهز كتفيه ، ويكاد يجري دون أن يلتفت ورائه ، وقد بدا جليا أنه ينظاھر بالانهماك في أداء أعماله .. وهذا قسيس متقدم السن ، قصير القامة ، ذو وجه أحمر ممتلىء ، وشعر أبيض ، ولحية قصيرة بيضاء تبدو خلالها بشرته المشربة بالحمرة ، يسير بادی الضجر ، وهو يجر قدميه جرا وكأنه يضيق بهذه الأماكن التي كثيرا ما ألقى فيها المواعظ وهو يتلقى حلف اليمين من كثيرين . وها هي ذى مجموعة من النساء والرجال ، يرتدون المعاطف الخاصة بالمسجونين ، وتسبقهم أصوات السلاسل التي تقيدهم ، وتقودهم جماعة من الجنود المسلحين بالبنادق .

واقترب من « نيكلودوف » أحد زملائه ، في اللحظة التي تنحى فيها جانبا ليفسح الطريق للمسجونين ..

وسأل نيكلودوف زميله : « قل لى ، من هؤلاء ؟ .. أهم الذين سوف نبت في أمرهم ؟ » .. فأجابه الآخر : « كلا ، أنهم

يساقون أولا الى قاضى التحقيقات « .. وأشار الى أحد المسجونين ، وقال : « آه ، يا له من رجل ! انه مخيف .. ليس كذلك ؟ »

قال نيكلودوف موافقا ، على الرغم من انه لم يلاحظ شيئا غير عادى على وجه المسجون : « بلى ! بلى ! .. بلى ! » واستوقف « نيكلودوف » محام من أصدقائه القدامى صائحا :

- صباح الخير يا أمير ! .. اذن فأنت الآخر هنا ؟
- نعم كما ترى .. هل سيطول بنا الانتظار ؟
- لست أدري ، ولكن .. أخبرنى يا أمير ، أهذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها الى هنا ؟
- نعم ، هى المرة الأولى .
- أحسبك لا تعرف قاعات المبني ؟
- كلا ، فى الحقيقة !
- تعال وتعرف عليها ، فهى مثيرة !
- وسارا فى الردهة ، وما لبث المحامى أن تساءل :
- لعلك لم ترى القاعة المستديرة المشهورة ، كذلك ؟
- لقد أخبرتك اننى لم أتعرف على شىء هنا .
- فلنذهب اليها !

واقترب « نيكلودوف » والمحامى من أحد الأبواب ، فأراه هذا الأخير قاعة بديعة ، مستديرة الشكل ، وقال : « هنا تعرض القضايا الهامة . جدير بك أن تشكر الله لأنه جنبك هذا العذاب . تصور أن أعضاء المحكمة يبيتون فى هذه القاعة - أحيانا - يومين أو ثلاثة بل أربعة أيام . أما قضاياكم فلا تتضمن - على ما أتذكر - شيئا غير عادى .. سرقة بالاكراه .. نصب .. قتل فرد واحد .. بالاختصار ، ليس فيها شىء مثير ! »

- هل أنت بين محامى الدفاع ؟

— كلا ، اننى — على العكس — أوجه الاتهام .
— كيف ؟

— نعم اننى أمثل الجانب المدنى .

— ألم تر آل « المازوف » منذ زمن بعيد ؟

— نعم منذ فترة طويلة .. قيل لى ان « مارى باقلوفنا » مريضة جدا .

وفى عودتهما شاهدا مساجين آخرين يدخلون القاعة التى آوت اليها هيئة المحلفين ، والتى كان نيكلودوف من أعضائها .. وكانوا مجموعة صغيرة ، ضمت رجلا وامرأتين ، ارتدت احدهما ملابس المدينة ، بينما ارتدت الأخرى زى السجن .

وقال المحامى ، وهو يبتسم : « ها هم أبناءك المقبلون ! » ولم ترق هذه الدعابة لنيكلاءدوف ، فحيا المحامى ، ثم دخل الى القاعة ، فى اللحظة التى أقبل فيها الحاجب .. وكان المحلفون هناك باكملهم . فناداهم الحاجب مرة أخرى بأسمائهم — اسما اسما — ثم دعاهم للنهاب الى قاعة الجلسة ..

وكان أناس كثيرون يتجهون صوب هذه القاعة : الكبار والصغار ، من يرتدون ملابس عادية ومن يرتدون ثيابا رسمية أو سترات بسيطة .. الأصلع منهم وذو الشعر الكثيف .. الأسمر منهم والأبيض . احتشدوا كلهم عند الباب ، ثم انتشروا فى القاعة ، ليجلسوا فى الأماكن المخصصة لكل فريق منهم . كانت القاعة طويلة وواسعة ، تشغل جانبا منها منضدة نكسوها غطاء أخضر ، وخلفها — على الحائط — لوحة تمثال القيصر . هو واقف ، وترتفع حافتها حتى السقف .. وفى الركن الأيمن ، قامت خزانة زجاجة مثبتة الى الحائط ، ضمت انقنات . والى حوارها منصة متوارة ، عليها نسخة من الانجيل ، لتؤدى عندها اليمين .. أما الجانب الأيسر ، فقامت حوله قضبان حديدية ، حجز وراءها المسحوتون ، وقد وقف خلفهم شرطة شهروا سلاحهم . وأمام القضبان ،

قيمت مناضد خصصت للقضاة والمحلفين .. والى جانب من هذه المناضد ، جلس المحلفون على أرائك خشبية .. أما لشطر الأقصى من القاعة ، فقد فصل عن بقيتها بقضبان حديدية ، وازدحم بصفوف من الأرائك الخشبية ، بعضها على مستوى من بعض ، على شكل مدرج .. وبين الجمهور لذي كان يشغلها ، ظهرت ثلاث نساء أو أربع ، من العاملات والخادمت - فما كان من اليسير الجزم بحقيقتهن من ظهرهن - ورجلان بدا أنهما من العمال كذلك .

● ما ان جلس المحلفون ، حتى أعلن الحاجب - بصوت حاد مزعج - قدوم هيئة المحكمة ، فاستوى الجميع واقفين .. ودخل القضاة ، يتقدمهم رئيس المحكمة . وكان رجلا طويلا ، مشقوق القوام ، عرفه ((نيكلودوف)) في الحال .. فقد التقى به في المجتمعات ، واعتاد أن يسمع الناس يصغفونه بأنه راقص من الدرجة الأولى ! .. أما القاضيان الآخران ، فلم يعرف نيكلودوف أيهما .. كان أحدهما مفرط السمنة ، أحمر لوجه ، ذا نظارة ذهبية .. أما الآخر ، فكان - على العكس - طويلا ، نحيفا ، شاحب الوجه ، غير متزن الحركات ، يبدو حالة انفعال مستمر !

وأقبل وكيل النيابة - في اللحظة التي دخل فيها القضاة - فاذا به نفس وكيل النيابة الذي كان ، قبل لحظات ، يسرع الخطو في الردهة ، حاملا حقيبته في إحدى يديه ، ومحركا ليد الأخرى في الهواء .. واتجه وكيل النيابة - وهو مازال يضم حقيبته الى جنبه - نحو النافذة ، ثم جلس في تودة في أحد المقاعد ، وعكف لفوره على دراسة أوراقه .. بينما أخذ كاتب الجلسة - الذي جلس في الناحية المقابلة - يتصفح هو الآخر بعض الملفات .

كانت الإجراءات التقليدية - التي أوشكت أن تبدأ -

مملة لجميع المستغلين بالأعمال القضائية من الحاضرين :
 المناداة بأسماء المحلفين ، اثبات الفائبين منهم ، الاستماع الى
 مبررات الذين يرفضون منهم أداء اليمين ، سؤال وكيل
 النيابة عن رأيه في هذا الصدد ، تقرير اعفاء البعض من هذا
 الاجراء الشكلي والحكم على بعض آخر بفرامة .. ويعقب
 ذلك طى وريقات صغيرة تحمل أرقاما ، ووضعها في وعاء
 لاجراء الاقتراع ، الذى يحدد رسميا المحلفين العاملين .
 والمحلفين الاحتياطيين الذين يحلون محلهم اذا ما تغيبوا .

وظل « نيكودوف » جالسا دون حراك ، ودون أن يفكر
 فى شىء معين ، خلال هذه الفترة .. وأخذ يستمع الى الناس
 وهم يتكلمون أو يتجادلون ، وينظر اليهم وهم ينهضون
 فيقتربون من منصة القضاة ، ثم يعودون الى أماكنهم ..
 وأخيرا ، ازم الجميع الصمت ، وشرع القضاة يتشاورون
 بصوت خافت .. فأخذ « نيكودوف » يتفرس فى المتهمين :

الرجل والمرأتين الذين رأهم - من قبل - فى الردهة .
 كان الرجل ضئيل الجسم ، ذا شعر يميل لونه الى
 الاحمرار ، وذا وجه أجرد تناثرت فيه بقع حمراء ، ووجنتين
 بارزتى العظام غائرتى الجلد .. وكان شديد الانفعال ،
 يرمق احدى السجينتين بنظرات قاسية ، ويتمتم - من وقت
 لآخر - بكلمات غير مفهومة .

وكانت احدى السجينتين - وهى تلك التى ارتدت ثياب
 السجن - جالسة منكسة الرأس ، فغاب كل الجزء الأسفل
 من وجهها فى الظلال ، ولم يظهر الا جبينها ، الذى بدا مفرط
 الجمال ، وقد أحاطت به خصلات سوداء صغيرة ، افلتت
 بدلال من الشريط الذى أحاطت به شعرها .. وكان أنفها
 مستقيما ، وعيناها عجيبتى السواد ، ما ان كانت ترفعهما
 حتى تبادر الى غضهما . وكان وجهها أصفر ينم عن سقام ،
 وتنطق تعبيراته بالارهاق وعدم الاكتراث فى آن واحد !

وبالرغم من قبح المرأة الأخرى - اذ كانت طويلة ، نحيلة ،
رتدى ثوبا ورديا - فانها كانت تستلفت النظر بملامحها
لناطقة بالنشاط والذكاء وقوة العزيمة ، وبذقنها البارز
وعناد .. وكان منظرها - وقد جلست القرفصاء بين
ميليا - يوحى بأنها ولا بد المحرصة الحقيقية ، لو أن هناك
جريمة حقا . وكانت - من ناحيتها - ترمق الرجل فى غير
ستلطف ، بينما ترمق زميلته فى احتقار .

وقال « نيكلودوف » فى نفسه ، وهو يرقب المتهمين :
(انذا بصدد جريمة قتل طفل ، ولا بد !)

ثم أخذ يتخيل قصة تلعب فيها الشابة دور الأم ، والرجل
دور الأب ، والمرأة ذات الحيوية والدهاء دور المنفذ للجريمة .
انتزع « نيكلودوف » من تأملاته - فجأة - صوت رئيس
المحكمة ، يدعو المحلفين الى اداء اليمين . فوقف المحلفون
تقدموا - كالتطوع - نحو الركن الذى كان القس السمين فى
رتقابهم عنده ، وقد ارتدى طيلسانا من الحرير الأسود ،
علق على صدره وساما وصليبا من الذهب .

وبهت « نيكلودوف » - فى بادئ الأمر - لاضطراره لأداء
هذا القسم . فعلى الرغم من أنه لم يكن يحفل بمثل هذا
الاجراء التقليدى ، الشكلى ، فانه شعر بخجل لاضطراره
الى ترديد نص اليمين - كلمة فكلمة - وراء القس الشيخ ،
الذى كان يالف هذا الاجراء ولا بد ، حتى انه لم يعد يفكر فى
عميته . ولكن ذلك لم يمنع « نيكلودوف » من رسم علامة
الصليب ، ثم التوجه الى منصة الانجيل ، وتقبيل الكتاب
لقدس والصليب الذهبى .. غير انه استاء عندما ذكر
الرئيس - فى الكلمة التى وجهها الى المحلفين - انهم اذا لم
حكموا بأمانة فى القضايا ، فسيستحقون القصاص ، جزاء
دائهم اليمين زورا . وتساءل « نيكلودوف » فى نفسه :
هل من الضرورى حقا أن يكون الخوف من جريمة الحنث

باليمن ، ناشئاً عن الخوف من عقاب تفرضه النيابة ؟ »
وعاد المحلفون الى أماكنهم ، بعد أن استمعوا الى رئيس
المحكمة ، الذى أسهب فى شرح ما كانوا يعرفون . . ثم بد
النظر فى القضية ، فراح « نيكلودوف » يتبعها باهتمام
متزايد ، ادراكاً منه لواجبه . وصاح الرئيس موجهها الكلا
الى المرأة ذات الحيوية والدهاء ، التى كانت تجلس فى الوسط
- المواطنة ايفيمى بوتشكوفا Ephime Botshkova
ما لقبك ؟

- بوتشكوفا .
- وما اسمك الاول ؟
- ايفيمى .
- وما تبعيتك ؟
- روسية .
- الارثوذكسية انت ؟
- ارثوذكسية طبعاً . كيف تريدنى الا اكون ارثوذكسية
- انك متهممة بالسرقة التى ارتكبت فى ١٧ يناير
- بالاشتراك مع « سيدهون ايباتوف Imon Ipatoff
- و « كاترين ماسلوفا » Katherine Masslova ، فى فندق
- (موديتانيسا) . . اذ سرقتم من حجرة التاجر « ايقار
- سميلكوف » Ivan Smielkoff الأشياء التالية : ساعة ،
- وخاتم ، ومبلغ ١٨٣٧ (روبل) و ٤٠ (كوبيك) نقداً . وبها
- ان قسمتم الأشياء المذكورة فيما بينكم ، سقيتم التاجر
- (سميلكوف) شراباً تسبب فى موته ، وذلك لاختفاء الجريفة
- فهل تعترفين انك مذنبه ؟
- فقالت المتهمه ، برباطة جأش : « لست مذنبه فى شئ ، بل
- اننى لم اذهب حتى الى حجرة سميلكوف . . . »
- واقاطعها الرئيس موجهها الكلام الى الرجل المتهم :
- الفلاح سيمون ايباتوف : لقبك ؟ اسمك ؟ تبعيتك

هل عمدت ؟ .. ألم تعاقب قط لارتكابك جريمة ما ؟ .. هل
تعترف بأنك مذنب اذ أحضرت فى يوم ١٧ يناير الى فندق
يوريتانيا « أفينا » ، بنية قتل التاجر السيبيرى « ايغان
سميلكوف » ؟ .. انك متهم باستخدام المرأة « كاترين
ماسلوفا » لتقديم هذا الأفينا - مذابا فى كأس من النبيذ -
الى « سميلكوف » ، مما تسبب فى موته .. وأنت متهم كذلك
سرقة ساعة المجنى عليه ، وخاتمه ، ومبلغ ١٨٣٧ (روبل)
٤٠ (كويك) كانت فى محفظته ، واقتسمت هذه النقود مع
ايغيمى بوتشكوفا « و « كاترين ماسلوفا » .. فهل أنت
مذنب ؟

- كلا . لست أعرف شيئا .. بل ما عرفت شيئا قط ،
لأننى كخادم ...
- بوسعك أن تشرح فيما بعد .. هل تعترف بأنك مذنب ؟
.. هذا ما أسألك الآن ؟
- كلا ، لأننى ...
- فيما بعد !

وأسكت الحاجب « ايغان ايباتوف » ، كما يفعل الملقن مع
ممثل يشعر بأنه بدأ يخرج عن نص الرواية ويتخبط ..
والتفت الرئيس الى المتهمة الأخيرة - كاترين ماسلوفا - وقد
رفع برشاقة يدا تعبث بسكين للورق ، وسألها : « لقبك ؟ »
وتمتت المرأة ببضع كلمات ، بصوت خافت جدا لا سبيل
لتمييزه . ولكن الرئيس لم يكرر السؤال ، اذ كان - وكل
الحضور - يعرفون أنها تدعى « كاترين ماسلوفا » ، فتحول
يسألها تباعا ، دون أن ينتظر منها جوابا : « تبعيتك ؟ ..
أرثوذكسية أنت ؟ .. هل عمدت ؟ »

وارتسمت على محياه أسارير الشخص الذى يضطر الى
ممارسة شكليات ، لا تتناسب مع مقامه السامى !
وعاد رئيس المحكمة يقول : « كاترين ماسلوفا ! .. أنت

متهمة بانك ذهبت من بيت للدعارة الى فندق موريتانيا ..
وبانك أعطيت الناجر ايقان سميلكوف نبينا مهرز وحا بالافيون .
وبعد أن غاب المدعو سميلكوف عن وعيه ، سرقت منه ساعته ،
وخاتها ، ونقودا تقاسمتها مع ايفيمي بوتشكوكا وسيهون
ايباتوف .. فهل تعترفين بانك مذنبه ؟)

وأطرقت المتهمة برأسها ، حتى اختفى الجزء الأسفل من
وجهها تماما في ياقة المعطف .. ومن جديد ، أخذت تتمتم
بكلام غامض . فصاح القاضي : « تكلمي بصوت أكثر ارتفاعا ،
حتى يسمعك الحاضرون جميعا ! » .. ولكنها اكتفت بأن
همست - مرة أخرى - بجملة قصيرة غير مفهومة ، فاندفع
الحاجب نحوها ، وأمرها بطريقة أكثر وضوحا : « تكلمي
بصوت أكثر ارتفاعا ! »

وعندئذ ، صاحت المتهمة فجأة ، بصوت مبجوح بعض
الشيء : « لم اعطه شيئا ! » .. ثم أضافت : « عندما وصلت ،
كان هو قد ثمل ! »

وسألها الرئيس بحدة : « وبعد ؟ .. ألا تعترفين بانك
مذنبه ؟ »

- كلا ، فقد كنت - أنا نفسي - مخمورة للغاية !
وانفجرت شفتاها عن ابتسامة مزرية ، زاد من بشاعتها
أن كشفت عن غياب اثنتين من أسنانها الأمامية .. ثم أردفت :
« لكم أن تفعلوا بى ما تشاءون ، ولكنى لا أتذكر شيئا ! » ..
ثم أرخت جفونها على عينيها ، وعادت - بعد لحظة - ترفعها ،
وقد تألقت عيناها ببريق غريب .. وما لبثت أن أطرقت
برأسها مرة ثانية ..

- ترى أين رأيت هاتين العيينين ؟ .. وهذه النظرات
الخجول ، الناعمة ، المليئة بالانتظار ؟
جال هذا التساؤل بخاطر (نيكودوف) ، الذى شده -
رغما عنه - الى المتهمة شيء لم يعرف له تحديدا .. فراح



« ترى أين رأيت هاتين المينين ؟ .. وهذه النظرات الحجول ، الناعمة ،
المليئة بالانتظار ؟ » جال هذا التساؤل بخاطر « نيكلودوف » !

يتأملها ، وقد سمحت عيناه - بقوة سحرية - الى عينيها !
غير أنه عجز عن أن يتذكر : أين وحتى رأى هذه النظرات
.. برغم ما بذل من جهود !

وبدا استدعاء الشهود ، بعد ذلك ، وكان كثير منهم
متغيبين .. وتابع « نيكلودوف » باهتمام قرار المحكمة بشأن
الغائبين ، وقرارها برفض بعض الشهود . بيد أن اهتمامه
البالغ بهذا ، لم يمنعه من أن يلقي - بين وقت وآخر - نظرة
على المسجونين .. كانت « ايفيمى بوتشكوفا » تتحدث الى
محاميها . أما « ايباتوف » ، فكان يجيل بصره فيما حوله ،
ويتمتم بدون انقطاع .. وكانت (ماسلوفا) هى الوحيدة
التي ظلت ساكنة جامدة ، وقد التفت فى معطفها الباهت .
وكان وجهها يضيء بتلك النظرة الساحرة - فى فترات نادرة -
وهى ترمق زميلها تارة ، والجمهور أخرى ، والقضاة ثالثة
.. غير ان نظرتها تلك لم تكن تستمر لأكثر من لحظة ،
ينخفض بعدها بصرها .

وبعد الانتهاء من مناداة الشهود ، عينت المحكمة عددا
من المحلفين ، بدلا ممن تخلفوا عن الحضور - لأسباب عديدة -
ثم بدىء فى قراءة قرار الاتهام :
« بتاريخ ... من سنة ... ، بعث اثنان سميلكوف ،
التاجر السيبيرى - الذى كان نزىلا بفندق موريتانيا - فى
طلب المدعوة « كاترين ماسلوفا » ، الشهيرة بلوباشا Lubasha
والتي رشحها له - من أحد بيوت الدعارة - سيمون ايباتوف
الخدم المختص بالطابق الذى كان النزىل يحتل إحدى
حجراته ، بالفندق المذكور .. واذا وصلت « كاترين ماسلوفا »
الى الفندق ، وجدت التاجر فى حالة سكر ، فطلبت أن تتقاضى
أجرها مقدما . وثارث ثائرة التاجر المذكور ، وضرب
« ماسلوفا » بعنف طوح بها الى الأرض . لكنه عندما

رآها في هذا المنظر ، أخرج حافظة نقوده - التى كانت تحتوى على عدد من الورقات ، من فئة المائة روبل - وأعطى المرأة خمس ورقات ، كما تعهد بأن يعطيها مثلها اذا هى بقيت معه ولم تتركه . وقد بقيت « كاترين ماسلوفا » ، ولكن التاجر كان ثملا ، فنام فى الحال . وخرجت « ماسلوفا » الى الردهة ، حيث التقت بسيمون ايباتوف - الخادم المختص بالطابق - ووعدته بأن تعود فى الثامنة صباحا .

« وحضرت فى الموعد المتفق عليه ، وبقيت بالقرب من العمل حتى الساعة الثانية ، من بعد الظهر ، وهو الموعد الذى استطاعت عنده أن تصطحب « ايقان سميلكوف » الى بيت الدعارة . فظل التاجر هناك - بصحبة « كاترين ماسلوفا » ونساء أخريات - حتى الساعة الخامسة مساء . وفى تلك الساعة ، بعث التاجر بماسلوفا الى الفندق ، لتأتى له ببعض المال ، وأعطاه مفتاح حقيبته . وفى الفندق ، دخلت « ماسلوفا » حجرة التاجر ، وبصحبته سيمون ايباتوف ، وأخذت - فى حضوره - أربعين (روبل) ، حسب نص شهادته . ثم عادت الى البيت ، وبقيت مع التاجر سميلكوف طوال السهرة . وعاد التاجر - بعد ذلك - الى الفندق ، وبصحبته « ماسلوفا » ، الشهيرة بلوباشا . واذ ذاك ، اتفق المتهمون الثلاثة على أن يسقوا ايقان سميلكوف خمرا - من جديد - حتى اذا ثمل تماما ، انتهبوا الفرصة لسرقة نقوده . « وكان لدى سيمون ايباتوف قليل من الافيون ، أخذه من إحدى المدمنات ، أثناء اقامتها فى الفندق وقتا طويلا . فعهد الى « كاترين » بأن تسكب لعميلها السم فى كوب من النبيذ ، ثم تقدمه اليه . وسكر ايقان كما لم يسكر من قبل قط ، وصمم على أن ترقص له « لوباشا » . واذ ذاك سأله « ايفيمى بوتشكوفا » - التى حضرت هذا اللقاء - أن يشرب كأسا أخرى . ورضوخا لأمر بوتشكوفا ، سمكت « لوباشا »

بعض قطرات من الأفيون في النبيذ ، وقدمته للتاجر . وما ان شرب الكأس ، حتى استلقى على إحدى الأرائك - خائر القوى - وراح في سبات عميق . فأخرج سيمون ايباتوف حافظة النقود من جيب التاجر النائم ، وأخذ كل ما كان فيها من نقود ، كما استولى على الساعة ، وعلى خاتم . وبعد أن أعطى هذا الخاتم الى « ماسلوكا » ، صرفها من الفندق .

« ولما كانت هي الأخرى مخمورة ، فقد راحت تتباهى بالخاتم المذكور ، فور وصولها الى البيت . واذ رآته رئيستها ، أخذته منها ، وأعطتها عشرة روبلات . ثم حملته الى أحد تجار المجوهرات ليقدر ثمنه . ولكنه لم يكد يرى الخاتم الثمين ، حتى اهتم بمعرفة مصدره . وعندما حصل على بعض المعلومات - بهذا الصدد - أسرع الى الشرطة وأبلغهم بالأمر . وكان الشرطة - في الوقت ذاته - قد فتحوا التحقيق بصدد التاجر « ايثنان سميلكوف » ، الذي توفي فجأة في حجرته بالفندق . واتجهت شكوك الشرطة - في الحال - الى المرأة « كاترين ماسلوكا » ، التي وشت - دون تردد - بسيمون ايباتوف وايفيمي بوتشكوكا ، باعتبارهما شريكها . وعلى الرغم من اعتراف هذين الأخيرين في مبدأ الأمر ، فانهما عادا وانكرا باصرار اشتراكهما في الجريمة ... »

● ● أخذ « نيكلودوف » يستمع باهتمام بالغ ، وقد انتابه جزع من ضراوة الأخلاق التي كشف عنها قرار الاتهام ، وعاوده شعور اعتاد أن يساوره في مثل هذه الحالات . . . شعور بمدى سموه على وسط تحدث فيه مثل هذه الموبقات . وكان صوت السكرتير أجش ، وقد بدا كأنه يتلاشى شيئا فشيئا ، كلما استمر في القراءة . وعندما وصل الى الفقرة التي ورد فيها أن التاجر سميلكوف - الذي كان يهتم اهتماما خاصا بلوباشا ، كما قيل - أوفد المرأة بالفتاح الى حجرته

بالفندق ، لتوافيه ببعض المال .. عندما وصل السكرتير الى هذه الفقرة ، نظر « نيكلودوف » نحو المتهمة ، فى الوقت الذى رفعت فيه عينها - وكأنها مزهوة بالثقة التى أولاها سميلكوف اياها - وتطلعت الى السكرتير .. ثم أخذت تنقل بصرها بين المحلفين ، وركزته - برهة - على « نيكلودوف » ..

وشعر الشاب فجأة بأن شيئاً قد انفجر فى رأسه ، فان الذكرى التى كانت - قبل لحظات - ترقد فى مكان بعيد جدا ، وهى تترجح وتتوارى تحت احساسات وانطباعات أخرى ، أخذت تشق لها طريقا ، لتطفو أخيرا على سطح ذاكرته .. وهتف فى نفسه : « انها كاتوشا ! .. كاتوشا التى كانت تعمل عند عمى ماري ايفانوفنا » !

ومنذ تلك اللحظة ، أخذ يحرق فى المتهمة ، وهو يلهث .. كانت تجلس منكسة الرأس ، كعدها من قبل .. وأخذ « نيكلودوف » يتأمل عينها ، وأنفها ، وشعرها .. وهو يهمس لنفسه : « أجل ، انها هى .. ولكن هذه عجوز معلولة ! » ورفعت « ماسلوفا » رأسها فجأة ، ورمقت السكرتير - مرة أخرى - فراح « نيكلودوف » يجادل نفسه : « كلا .. لا ، هذا غير ممكن ! » .. ومع ذلك ، فقد ايقن من انه لم يكن ثمة مجال للشك .. فهذه هى ! .. انها « كاتوشا » بلحمها وشحمها .. « كاتوشا » التى أحبها - فى وقت ما - حبا جادا ، حتى انه فكر فى أن يتزوجها ، والتى اغواها - فى نهاية المطاف - ثم لم يلبث أن هجرها .. نعم ، كانت هى « كاتوشا » !

كان ذلك قبل أربعة عشر عاما ، خلال الحرب بين تركيا وروسيا ، عندما انضم الى الجيش ، بعد أن سئم - الى أقصى درجات السأم - حياة الفراغ التى كان يحياها فى (بطرسبورج) .. وفى طريقه الى الجبهة ، عرج على عمته « ماري » و « صوفى » ، وقضى معهما أياما !

الفصل الثانى

ذكريات • • تثير القلق !

• كان ، اذ ذاك ، فى الحادية والعشرين ، يجتاز فترة الدعة والاستسلام للكسل ، التى تعقب عادة أعذب الأحلام ! وكانت تلك هى الفترة التى قدر له فيها - برغم اندفاعه بطبيعته الى الخير - الا يفعل الا امورا تستحق اللوم ، وان كانت تناسب الوجود الذى آلفه افراد طبقاته • • كان « نيكلودوف » قد ورث ضيعة صغيرة عن والده • وبدلا من أن يمنحها للفلاحين - كما كان يعتزم - وجد نفسه قد استدان مبالغ كبيرة ، بددها فى الميسر ، مما اضطره لبيع الضيعة كى يسدد ديونه . وفى هذه الفترة ايضا ، انخرط فى سلك الجندية ، بالرغم من انه كان يعتبر الحرب اشنع مبتكرات الانسان • ووجد نفسه فى تلك الفترة - فترة الانهيار الخلقى - يقضى اسبوعا عند عمته ، وهو فى طريقه الى جبهة القتال • • وفى بيتهما ، التقى بكاتوشا ، الفتاة الطاهرة البريئة ، التى لم يكدرها حتى هام بها حبا ، وفكر جديا فى أن يتزوج منها ، ويعيش معها فى سلام حتى آخر ايام حياته • •

ولكنه لم يفعل شيئا من هذا • • فقد اغوى « كاتوشا » ، ثم هجرها • • وانتهى الأمر ! ذلك لان كيانه كان يضم دائما شخصية مزدوجة ! • • كان يعيش فى أعماقه - وفى آن واحد - شخصان متناقضان تمام التناقض : الأول عاطفى ، لا ترى عيناه الا ما يحقق سعادته وراحته ، فهو انسان هانىء بالحياة ، مستسلم قلبا وقالبا للعواطف التى تستحوذ عليه ! • • اما الآخر ، فكان - على النقيض - انسانا متعنتا مع نفسه ومع الغير ، ينشد كمالات خلقيا يهفو اليه بكل عقله ونفسه • • وكانت هذه الشخصية المزدوجة أكثر وضوحا فى الماضى ، قبل أربع عشرة سنة ، عندما وقعت هذه المفامرة البشعة التى نسيها

أو كاد .. وإذا كان قد نسيها ، فانما ذلك لأنه كان يخشى مجرد التفكير فيها ، لبشاعتها ..

وها هى ذى تتكشف له بكل أبعادها ، فى قاعة المحكمة !
جرى كل ذلك فى فترة لم يعد فيها « نيكلودوف » قادرا على أن يحيا حبيس الدائرة الضيقة .. دائرة افكاره واحاسيسه ، فلم يقاوم التيار الذى عذبه - فى نهاية الأمر - وألجم ضميره ، ليتكيف مع افكار الناس وعواطفهم ومشاعرهم .. لم يعد يسأل نفسه - فى تلك الآونة - أن كان تصرفه صوابا أم خطأ ، فما عاد هذا يهمه فى شيء ، اذ انه قرر نهائيا أن يفعل ما يفعله الآخرون ، وأن يعيش كما يعيشون .. فاستسلم للتيار بعد أن أعيته المقاومة !

وعندما عاد « نيكلودوف » من الخارج ، أقام فى (بطرسبورج) محاطا بأصدقائه الارستقراطيين . واذ أيقن من موافقة أمه - أو تسامحها على الأقل - أخذ يتذوق كافة ألوان اللهو والعبث ، التى كانت الحياة فى مجتمعه تهيئها له .. وبهذه الحدة - التى كانت تميز جميع ألوان نشاطه - أقبل على حياته الجديدة بكل نفسه وكيانه ، دون أن تراوده أية ذكرى للمثل الأعلى الذى كان ينشده من وقت قريب . حتى لم يمكن أن يوصف بأنه لم يعد نفس الرجل الذى كانه ! وفى هذه الحالة النفسية ، قرر « نيكلودوف » - ذات يوم - الالتحاق بالجندية ، والسفر الى الجبهة .. كان الجميع قد فعلوا ذلك . ولما كان مسلكهم هذا واضحا ، فانه لم يجد مبررا لأن يتصرف على نحو آخر .

● وفى طريقه الى المدينة ، التى رابطت فيها كتيبته ، عرج على ضيعة عمته لزيارتها ، لا سيما أن عمته الكبرى كانت « اشبينته » فى العمد أيضا . وكان حين زارهما فى العام السابق ، قبل أن يسافر الى الخارج ، فى حالة نفسية مختلفة تماما .

وفي تلك الأيام - التي قضاها في ضيافة عمته اللطيفتين ،
الرائعتين - كان ذهنه عامرا بأجمل الأحلام .. بأحلام كانت
تبدو للجميع - فيما عداه - مستحيلة التحقيق !

تلك الأحلام راودته بعد تركه المفاجيء للجامعة مباشرة ..
في الوقت الذي بدأت تدب فيه الخلافات - الى حد ما - بينه
وبين والدته ، اذ أفضى اليها بعزمه على ألا يعيش من ثمار
كد الفلاحين .. فقد كان يرى أنهم يتعبون ويشقون من أجل
سادة الأرض ، وليس من أجل أنفسهم وعائلاتهم !

وعندما وصل « نيكلودوف » الى الريف - عند عمته -
وراقب حياة الفلاحين وسادتهم في واقعها - وليس نظريا
فحسب - أصبح أكثر اقتناعا منه في أى وقت مضى ، بأن
امتلاك الأرض يؤدي بالضرورة الى استعباد الفلاح ..
كانت هذه الأفكار من الجدة والوضوح - بالنسبة اليه -
بحيث بدا تحقيقها سهلا ميسورا ، الى درجة جعلت
« نيكلودوف » يقضى كل فترة اقامته - عند قريبته - في
حال من النشوة والحماس . ولكنه لم يحاول أن يحمل
عمته على اعتناق مذهبه الجديد ، اذ كان يعتبرهما أصدق
مثالين لعهد مضى .. وقنع بالكتابة عن هذا الموضوع الى
« هنرى جورج » العالم الانجليزى والمصلح الاجتماعى
المشهور ، الذى كان « نيكلودوف » مكبا على ترجمة مؤلفاته
الى الروسية . كما انصرف الى دراسته الخاصة للموضوع
ذاته ..

تلك كانت - بالنسبة له - فترة صدق ونقاء ، مفعمه
بالصفاء والغبطة !

كان الربيع وقتئذ ينشر اشراقه على الكون .. وكان
« نيكلودوف » يستيقظ مبكرا - عند الفجر غالبا - فيذهب
للسباحة والاستحمام . وما ان يعود ، حتى كان يجلس الى
منضدته ليواصل التأليف ، ثم يتناول فطوره مع عمته ،

ويذهب فى نزعات طويلة على الأقدام ، أو على صهوة جواد ..
فإذا عاد كان يدرس اللغة الإيطالية ، ويقرأ ويكتب ، ويفكر فى
غوامض الكون تفكيراً عميقاً .. كانت هذه الفترة - بدون
شك - أحلى فترات حياته .. الفترة التى ظل يتذكرها مراراً
بجنين وشوق .

ولكن شيئاً آخر غير هذا ، كان يصفى على إقامته قبل
الآخيرة - فى الريف - فتنه خاصة .. هذا الشيء تمثل فى
« كاتوشا » ، الشابة اليتيمة ، التى تركتها والدتها وهى
صغيرة ، فالتقطتها عمتها . ولقد قامت بينه وبين الفتاة
المتبناة علاقات فيها شيء من الحب وشيء من اللهو !

كانت « كاتوشا » فى السابعة عشرة من عمرها ، إذ ذاك ..
نحيلة القوام ، رقيقة ، خفيفة الخطى ، ذات عينين فى
سوادهما وميض براق .. وكانت تقوم فى منزل عمتى الأمير
« نيكلودوف » بأعمال غير محدودة . وقد حدث فى يوم عيد
الصعود ، أن حضرت إحدى الجارات للزيارة مصطحبة ابنتيها
وابنها - الذى كان وقتئذ طالباً - ورساما شاباً كان مقيماً
مندها . واتفق الشباب على اللعب ، وكانت « كاتوشا »
خفيفة كالريشة ، لا تمكث لحظة فى مكان واحد ، وسرعان
ما تمسك بمن تلاحقه . وعلى الرغم من أن « نيكلودوف » لم
يكن يقل عنها سرعة ، وقد أراد أن يظهر براعة وتفوقاً ، فانه
وجد عناء فى التغلب عليها !

وصاح الرسام ، الذى كان - هو الآخر - سريع الجرى :
« يا لهما من اثنين لا يمكن للحاق بهما ! »
وصاح اللاعبون وهم يصفقون ثلاث مرات : « هيا !
واحد ، اثنان ، ثلاثة ! »

وأمسك « نيكلودوف » بيد « كاتوشا » القوية - التى
كانت محتفظة بجمالها ، برغم ما تركه العمل عليها من
خشونة - فضغطت هى الأخرى على يده بقوة .. وأخذت

« جونلات » كاتوشا المنشاة ترتطم بعضها ببعض ، فتحدل حفيفا تحت ثوبها الوردي المصنوع من القطن المنقوش ، وهم تجتاز المكان بسرعة البرق .. وانتظر « نيكلودوف » الوقت المناسب ، ليندفع بدوره فيسبق الرسام ، الذي كان يجرى بأقصى سرعة وقد مال بأعلى جسمه الى الأمام ، بينما أخ شعره يتطاير في الهواء ..

وبدون أن ينتبه الى أن الرسام قد توقف فجأة ع التجري ، راح « نيكلودوف » يعدو - وكأنه يطير - وقد أسكر شبابه وسرعة السباق ، وتعلقت عيناه بشوب « كاتوشا » الوردي ، وساقبيها اللتين شابيهما الجناحين ، اذ كادت تطير بها ! .. كانت تجرى بسرعة لا تتيح لأحد أن يلحق بها . وفجأة ، أومات له برأسها ، ليقف وراء إحدى شجيرات « الليلا » ، بيد أنه دار حول الشجرة ، بغية لقائها في مكان أبعد من ذلك ، برغم أنه فهم الغرض الذي رمت اليه بايماءة .. وواصل الاثنان العدو ممعنين في الابتعاد ، وقد استشعر غبطة ونشوة لفرط سرعتهم وخفتهم ، غير حافلين برفاقهم الذين أخذوا يتخلفون وراءهما تباعا !

ولم يتوقفا الا وراء مجموعة صغيرة من الأشجار ، علم بعد كبير ، وقد فهم كل منهما ما كان الآخر يبتغي .. توق ومدا أيديهما في حركة تلقائية . ولم يرهما أحد ، فقد تر باقى المجموعة وراءهما بعيدا .. مدت « كاتوشا » يده اليمنى لنيكلودوف - بينما كانت اليسرى تصلح صغيرة الغزيرة - وهى تبتسم وتلهث ، وقد راح صدرها يهبط ، وعيناها الوضاءتان تلمعان ببريق شديد .. وضعف « نيكلودوف » يدها بين يديه بشدة ، وقرب وجهه من وجه الفتاة بحركة غريزية ، دون أن يدرك كنه الاحساس الذي دفعه الى هذا السلوك .. ولم تبعد الفتاة ، بل حذت حذوه مبتسمة له .. ثم تبادلا قبلة !

وصاحت الفتاة خجلا ، وقد ازداد احمرار وجهها الوردى الجميل ، الذى تناثرت عليه قطرات من العرق ، ثم ابتعدت عن زميلها بعد ذلك بحركة سريعة ، تاركة اياه بغتة ، وفرت بسرعة . وفيما هى تجرى ، اقتربت من شجرة « ليلا » أخرى ، فانتزعت منها فرعين راحت تضرب بهما وجهها ، وقد التفتت برأسها - فجأة - ناحية « نيكلودوف » .. وواصلت الجرى لتلحق بباقى اللاعبين .

وهكذا بدأ عهد جديد فى علاقتهما .. عهد رائع لا يشبه أى عهد آخر . وأدرك الاثنان أن ثمة شيئا فريدا ، له سحر لا يوصف ، قد نشأ بينهما . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ كل منهما يحس بوجود الآخر فى أى مكان يكون فيه ، مهما يكن هذا المكان .. واذا صادف أن دخل أحدهما حجرة ، وكان الآخر بها ، فإن كل ما حولهما كان يتغير فى الحال بأعجوبة .. واذا لم يقدر للواحد منهما أن يرى الآخر الا عن بعد ، فانهما كانا يتبادلان النظرات ، فيجدان فيها الكفاية ، اذ انها كانت ترقى بهما الى قمة السعادة .. ولكن ما ان كانا يلتقيان على حدة - فجأة ، وعلى غير توقع - حتى كن يتولاهما شعور غريب ، هو نوع من الحرج والارتباك ، لم يكن ينبعث عن الخجل ، بقدر ما كان ينبعث عن الخوف .. كانت الدماء تتصاعد اذ ذاك الى وجهيهما ، والكلمات تنعشر على شفاههما .. هذا ، اذا حاولا الكلام ، فالواقع أن حديث نظراتهما كان طفى على كل ما يمكن أن تنطق به الشفاه !

وذات يوم ، قابل « نيكلودوف » كاتوشا ، وهى تمسك بيدها كتابا اثار اهتمامه الشديد .. كان الكتاب يحتوى على مجموعة قصص لتورجنيف . وكان « نيكلودوف » - فى ملك الآونة - مشغوبا بدستوفيسكى بوجه خاص ، فحملها على أن تقرأ رواية « الجريمة والعقاب » .. ومرة أخرى ،

استغل فرصة زيارة قام بها أحد الفلاحين - ليرجو العمة « ماري ايغانوفا » الافراج عن بقرة له ضلت الطريق ودخلت حديقة سادته - فأخذ ديميتري يعرض على « كاتوشا » بعض آرائه السياسية . بيد أن احساسا داخله - دون أن يدري مأتاه - أوحى اليه بأنها لم تكن تأبه لنظرياته ، بل انها - على العكس - كانت تقاسم عمتيه آراءهما . ولعله كان من الممكن تبرير ذلك - من ناحية - بعدم قدرتها على تقدير القيمة الحقيقية لآراء الشاب ، الذي كان وجهه يتضرج ، وعيناه تغضان النظر ، والكلمات تختنق في حلقه ، وهو يتكلم !

● وكان « نيكلودوف » قد قرر باصرار - منذ وقت طويل جدا - ألا يتزوج الا من فتاة يحبها حبا صادقا . ولما كان قد اعتقد - اذ ذاك - أنه أحب « كاتوشا » حبا شديدا ، فإن فكرة الزواج بها لم تروعه ، بل انها كانت - على العكس - تملأه فرحا وسرورا .. كان يدرك أن هذا خليق بأن يحزن أمه وعمتيه ، ولكن ما حيلته ؟ .. كان عليه أن يحزم أمره في قرار نهائي ، ما دام الموضوع يتعلق بسعادته طوال حياته . وأخذ يسائل نفسه : « ما دمت أحبها ، وهي من ناحيتها تحبني ، فلماذا أتردد في الزواج منها ؟ » .. صحيح انه ما كان يعتزم الزواج في الحال ، فما كان من الحكمة أن يعقد قرانا قورا ، اذ كانت لديه - في تلك الآونة - أعمال كثيرة أخرى لا بد من انجازها ، منها : السفر الى الخارج أولا ، ثم اتمام مؤلفه ونشره ، وأمور غير ذلك ..

والكن ، لم لا يتزوجها فيما بعد .. بعد فترة من الوقت ؟ وهكذا غادر ضيعة عمتيه ، وسافر الى الخارج ، ، دون أن يكون قد اتخذ أي قرار ، ودون أن يكون قد فاتح « كاتوشا » في الموضوع .. وهكذا - أيضا - لم يقدر له أن يرى الفتاة ، الا بعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، عندما عرج على ضيعة

عتميه - وهو فى طريقه الى الجبهة - واقام معهما اياما ..
 وفى هذه الزيارة القصيرة ، حدثت تلك المفامرة البشعة !
 .. استقبلته عمتاه - اللتان كانتا تحباناه الى درجة
 العبادة - استقبالا لطيفا لا سبيل الى نسيانه .. اذ انهما
 لم تكونا تريان فى ابن اخيهما من عيب ، سوى انه لم يلتحق
 بالجيش ، وسوى انه ظل خاملا ، كسولا ، الى حد كان
 يخجلهما امام معارفهما .. اما وقد انخرط فى كنيبة من أكثر
 كتائب الجيش ارستقراطية ، فقد تغير الأمر تماما .. فضلا
 عن أنه - حين زارهما - كان مسافرا الى الجبهة ، ومعرضا
 للموت .. أو للاصابة على الأقل ! .. وعلى الرغم من قلقهما
 الشديد عليه ، فانهما اقرتا - من صميم قواديهما - هذا
 العمل النبيل الذى قام به ابن اخيهما الحبيب . ولهذا احتفتا
 به أيما احتفاء ، واحتضنتاه واللموع تترقق فى أعينهما ،
 وأخذتا تلحان عليه أن يقضى عندهما أسبوعا ، صادف أنه
 كان ((أسبوع الآلام)) . ولقد سر « نيكلودوف » - هو الآخر -
 لرؤية العجوزين ، واغتبط كل الاغتباط لفكرة بقائه
 بالاستجمام اياما ، فى ذلك المسكن الذى كان يحمل له دائما
 عذب الذكريات .. ولكن اقامته فى الريف - فى هذه المرة -
 كانت مختلفة عن سابقتها .. اذ كان قد تغير فى خلال الشهور
 الثمانية عشر تغيرا كبيرا ، حتى لقد أصبح من الصعب
 التعرف عليه .
 ومع أنه لم يكن قد تخلى تماما عن نظرياته السابقة ،
 فان هذه النظريات انزوت فى مؤخرة افكاره ، وقد طرات
 عليها تعديلات وتفسيرات نبعت من هموم الحياة وتقلباتها ..
 أجل ، لم ينبذ « نيكلودوف » مبادئ المصلح الاجتماعى
 « هنرى جورج » ، ولكنه رأى أن الوقت لم يحن بعد
 لتنفيذها . فضلا عن ذلك ، فقد أصبح يعتقد أنه غير قادر
 على انجاز مثل هذا العمل النبيل .

وفي الوقت ذاته ، أصبحت علاقاته بالنساء مختلفة . كان يرغب بدون شك في أن يتزوج من الفتاة التي أحبها ، ولكن .. ماذا كان يملك ورغبته هذه تصطدم بظروف غير ملائمة ؟ .. فما كان هذا بالأمر الذي يقدم عليه انسان من طبقته ، اذ انه كان كفيلا بأن يؤدي الى ضياع مستقبله ، والى أحداث قطيعة تامة بينه وبين أمه وأهله .. بل قطيعة بينه وبين كل أفراد طبقته .. وسواء شاء المرء أو لم يشأ ، فقد كان مضطرا الى أن يعيش كما يعيش الجميع .. ولهذا عاش - سواء في الخارج ، أو في (بترسبورج) - كما يعيش سائر الناس !



● كان « نيكلودوف » في هذه الحالة النفسية ، عندما حضر الى (بانوفو) - ضيعة عمته - وقد توقع أن تكون اقامته ممتعة ، بفضل وجود « كاتوشا » .. لأنه كان يفكر في اغواء الفتاة ، فالواقع أن هذا لم يخطر له ببال .. بيد أن الفرح كان يملا قلبه - برغم كل شيء - لاحتمال رؤية الفتاة مرة أخرى ، والظهور أمامها وهو في قمة اناقته ، في بزة الضباط ، وقد ارتسم على وجهه هذا الشارب الصغير ، الذي كان يبرز لون بشرته . وما أن دلفت العربة الى الفناء المفضي الى البيت ، حتى أخذ « نيكلودوف » ينظر في كل اتجاه ، وهو يتحرق شوقا لرؤية « كاتوشا » . ولكنه لم يرها عند الباب الرئيسي ، ولا عند باب الخدم .. وهرع لاستقباله خادم عجوز ، اقتاده للحجرة التي جهزت خصيصا من اجله ، وأخذ يبذل مافي وسعه لخدمة السيد . وعندما ذهب « نيكلودوف » - بعد ذلك - الى حيث كانت عمته ، ولم يجد كاتوشا بالقرب منهما ، انقلب مزاجه فجأة ، وشعر بأن هذه الزيارة كانت ضربا من الغباء ! .. وعند ذلك ، أدرك أن « كاتوشا » كانت عزيزة عليه فوق ما كان يخال .. وأراد أن يسأل عنها ،

ولكنه شعر بأن هذا لم يكن من الحكمة فى شيء .. وأخذ وهو يجيب عن أسئلة عمتيه بذهن شارد - يرمق الباب ولا يحول عنه نظره ، وقد راح يسائل نفسه : « أمن الممكن لا تكون كاتوشا هنا ؟ .. ولكن ماذا حدث لها اذن ؟ .. ما أشد أسفى ، لو قدر لى ألا أراها ثانية ! »

ولكنه ما لبث أن سمع خطوات شابة خفيفة ، على مقربة منه . وفجأة اكتسى الكون بنور ساطع ، ودخلت « كاتوشا » ! ولكنها لم تكن - فى هذه المرة - ترتدى ثوبا ورديا ، بل كان ثوبها أزرق مخططا تعلوه مرولة بيضاء أنيقة .. وإذا لم تكن « كاتوشا » قد كبرت - فى هذه الحقبة من الزمن - فإنها دون شك قد ازدادت جمالا ، على أقل تقدير ! وقد ظلت عيناها السوداءوان البراقتان ، تحتفظان بنظراتهما الرقيقة الساحرة . واذ رأت « كاتوشا » الزائر ، تخرج وجهها ، وأقبلت تحييه هاتفة : « أهلا بك يا ديميتري ايڤانوفيتش ! » - صباح الخير يا « كاتوشا » . : كيف حالك ؟

- الحمد لله ، اننى فى أحسن حال .
ثم أردفت ، وهى تتحول نحو العمة مارى : « لقد كلفتنى ماتوشكا أن أشكرك .. انها الآن أحسن حالا ، وتطلب قليلا من ملح النوشادر ، اذا كان هذا ممكنا » .
- أعطيتها قليلا منه ، ان كان لدينا .. هل القهوة معدة يا كاتوشا ؟

- سأقدمها حالا !

ورمقت « نيكلودوف » بنظرة اخرى ، ثم خرجت من الحجرة والاحمرار لا يزال يكسو وجهها .. وبالرغم من أن « كاتوشا » كانت تتكلم عن ملح النوشادر ، وعن شخص مجهول ، فقد خيل الى « نيكلودوف » أنها لم تقل الا شيئا واحدا : « اننى سعيدة بزيارتك .. اننى سعيدة جدا ، فانا أحبك ! »
نعم ، لم تكن « كاتوشا » قد تغيرت فى شيء ، ولكن

((نيكلودوف)) كان قد تطور ، فلم يعد الشاب البريء الذي كانه قبل عامين تقريبا .. اجتاز الفترة الحرجة ، التي كان يفرض خلالها أن يفعل ما يفعله الجميع ، ويتشبث بالأطوار سوى ضميره فقط .. لذلك فان ((كاتوشا)) لم تعد - تصورته - تلك المخاوقة الفاضلة ، التي كان يشعر نحوه من قبل بنوع من الاحترام ، والخشوع .. وإنما أصبحت بالنسبة اليه - مجرد امرأة ، ولا أكثر من ذلك .. أصبحت واحدة من أولئك النسوة اللاتي يعرفهن جيدا ، لأنه كان يراهن عن كسب !

ووقر في ذهنه أنها خادمة عمتيه اللطيفة ، التي يستطيع أن يلهو معها ، وأن يلعب .. بل ربما جاز له أن يذهب إلى أبعد من ذلك ! .. وما كانت هذه الفكرة - في الواقع - فكرة طيبة ، ولكن .. ولكننا لسنا ملائكة ، على أية حال .. اليس كذلك ؟ .. ومع هذا ، فقد كان ((نيكلودوف)) يدرك بجلاء أن بينه وبين ((كاتوشا)) شيء ذو معنى أكبر من هذا الذي يصبو اليه !

وقصارى القول ، ان ((نيكلودوف)) اعتقد - منذ اليوم الأول - انه أحب الفتاة حبا عنيفا . كان الثوب الأزرق المخطط ، الذي تعلوه المرولة البيضاء ، يلف قوامها الذي ازداد جمالا بمرور الزمن .. وكان شعرها الأسود الناعم مجدولا في ضفيرة غزيرة .. وأصبحت تكسو خديها - أحيانا كثيرة - حمرة جذابة ، بينما أخذت عيناها الخلابة البراقتان - بما لهما من حور خفيف - تضيفان على وجهه فتنة بالغة ، لا سيما حين كانت تبسم ابتسامتها المشرقة فتكشف عن صف رائع من الأسنان البيضاء . على ان ما كان يأسر ((نيكلودوف)) - بسلطان مطرد - تمثل في ذلك الطبع النقي ، والبراءة الساذجة ، اللذين تجلى خلالهما ذلك الحالك الكامن في كيانه !

أجل ، أحس « نيكلودوف » - منذ اليوم الأول - بأنه أحب « كاتوشا » .. ولكن حبه - فى هذه المرة - لم يكن كحبه فى العام الماضى .. لم يكن كذلك الحب الذى يفرض ارتباطهما مدى الحياة .. كلا ، لم تعد المسألة مسألة زواج ! .. كل ما فى الأمر أنه أيقن من أن داء الحب قد أصابه ، فتقبله باستسلام غريزى ، دون ما تفكير فى العواقب .. فقد أثر أن يغمض عينيه عن العواقب ، لأنه كان - فى تلك الحقبة - قد دخل الرحلة التى بدأ فيها ينساق لفكرة أن يتصرف كما كان يتصرف سواه ، دون ما حاجة الى جدال أو تفكير . فاستيقظ فيه - فجأة - ذلك الشخص النهم للحياة ، الذى لا ترى عيناه إلا كل ما يحقق له المتعة ، وشرع يتأهب ليسحق الفتى الطاهر الخجول الذى ينشد المثل العليا ، والذى يشاطره نفس « نيكلودوف » وكيانه .. تأهب الشخص النهم للحياة والمتعة ، ليصبح السيد الأوحى المسيطر على نفس « نيكلودوف » !

ولقد كان الشاب يدرك عن يقين أن ليس له ما يفعله عند عمتيه ، وأنه لم يبق له - فى هذه الظروف - سوى أن يبارح (بانوفو) بأسرع ما كان فى وسعه .. غير أنه أبى أن يفكر فى الرحيل ، وأثر أن يمكث لكى يرى « كاتوشا » ويبقى بالقرب منها .

● وفى مساء السبت المقدس ، حضر أحد القساوسة ليقم الصلاة .. وذهبت « ماتريونا پافلوفنا » - وصيفة « مارى ايغانوفا » - الى الكنيسة ، لتبارك الخبز المهد لهيد القيامة . وعندما علم « نيكلودوف » أن « كاتوشا » تمتزم مرافقة الوصيفة العجوز ، قرر أن يذهب هو الآخر الى الكنيسة ! .. وطلب من عمتيه جوادا ، ليحضر قداس الفجر .. وكان

الطريق وعرا ، تتراكم فيه الثلوج والمياه ، والوحد .. ووصل « نيكودوف » إلى الكنيسة مبكرا ، فجلس في الركن الذي أوى إليه بعض أعيان البلدة ، كما جلست فيه « ماتريونا بافلوفنا » و « كاتوشا » .

وكانت الطقوس الأولى قد انتهت لتوها ، وأوشك القداس الأول على الابتداء . وظهر مطران من وراء المذبح ، يحمل يديه شمعدانا ذا ثلاثة أفرع ، وأخذ يرتل ترنيمة « المسيح قام » .. وسرعان ما امتزجت أصوات المرتلين بأصوات الشمامسة ، فشاع في المكان جو لا مثيل له .. كان كل شيء جميلا ووقورا : فالقس في ملابس كهنوتية لامعة ، والشمامسة وخدام الكنيسة في ثيابهم التقليدية ، والمرتلون من أبناء الشعب في ثياب العيد .. والأناشيد تبعث على الانشراح ، والبركات تفيض على المصلين ، والشمعدانات والثريات مزدانة بالأشرطة الجميلة الألوان ، وكافة الحضور في أجمل زينة .. فالشعور منسقة ، والاقمصنة بيضاء ناصعة ، والسترات الجديدة تلتف حول الخصور بأحزمة ظاهرة .. كان هناك ملاك الأراضى وزوجاتهم وأولادهم ، وعمدة البلدة ، وعامل البرق ، ورئيس الشرطة الريفية .. كل منهم أجمل مظهرا من الآخر ، ولكن « كاتوشا » كانت أجمل الجميع دون شك ، بثوبها الأبيض ، وحزامها الأزرق السماوى ، والشريط الوردى الذى كان يزين شعرها .. وكانت ترى « نيكودوف » دون حاجة إلى أى التفات . ولقد شعر الشاب بأنها ترمقه أثناء مروره بالقرب منها ليذهب نحو المذبح .. وبالرغم من أنه لم يكن ثمة ما يقوله لها ، فقد تذرع بحجة ما ، ليهمس في أذنها : « لقد قالت عمتى مارى إنها لن تختم صيامها إلا بعد القداس الأخير ! » .. وتصاعدت الدماء الشابة في الوجه الفاتن — كما أصبحت العادة في وجود « نيكودوف » — وتسمرت عينا الفتاة السوداء وان التألقان

على الشاب ، وأجابت . . لمجرد أن تقول أى شيء : «حسنا !»
 وفي هذه اللحظة ، احتك بالفتاة أحد الشماسية ، وهو
 يشق طريقا وسط الجمع المحتشد ، ليتخذ مكانه فى الصف
 بوقار . ودهش الأمير لقضاء هذا الشماس ، الذى لم يدرك أن
 «كاتوشا» سيدة كل من فى هذا المكان ، بل سيدة العالم
 بأسره . . أن «كاتوشا» فوق الجميع ، وملكة الكون ومولاته
 وبهجته !

وانتهى القداس الأول . . وما إن بدا الفلاحون
 والقساوسة يتبادلون قبلة العيد ، حتى غادر «نيكلودوف»
 الكنيسة . . وانحنى له بعض من كانوا فى طريقه ، وحيوه .
 وتوقف عند المدخل ، فأحاط به الشحاذون . . ووزع عليهم
 بعض المال ، وهو مضطر الى أن يرضى الجميع . وما لبثت
 «ماتريونا ياقلوفا» و «كاتوشا» أن خرجتا ، ومرتا أمامه ،
 ثم وقفتا فى الفناء . . وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ،
 وأشعتها المائلة تنثر مساحات من الضوء تتراقص على وجه
 البرك والجليد ، هنا وهناك . . وتجمع الفلاحون والفلاحات
 — فى أجل زينتهم — فى ميدان الكنيسة ، يتبادلون قبلات عيد
 القيامة ، ثم توجهوا نحو المقبرة المجاورة ، لزيارة قبور
 ذويهم . واستوقف طباح «مارى ايئانوفا» الشيخ وزوجته
 «نيكلودوف» ليقدما له بيضة — من بيض عيد القيامة —
 ويقبله كما تقضى التقاليد . . وتبع الخادمين العجوزين مباشرة
 فلاح ، اقترب بدوره من «نيكلودوف» ليقبله هو الآخر قبلة
 العيد ، وقد بدت على وجهه أمارات الفرح .

وقال الفلاح وهو يقرب شفثيه الباردين من وجه الأميرة
 «لقد قام المسيح من بين الأموات» ! . . ثم طبع ثلاث قبلات
 متتابعة ، بصوت مسموع . . وفى اللحظة التى تلقى فيها
 «نيكلودوف» القبلات والبيضة الملونة من الفلاح ، ألقى
 نظرة على «كاتوشا» فاذا أحد الشحاذين يقترب منها .

والتقطت الفتاة من كيسها شيئاً أعطته إياه ، ثم قبلته ثلاث مرات .. وقال « نيكلودوف » في نفسه : « بالها من فاتنة ! » ثم اتجه نحوها ، وليس في نيته أن يقبلها القبلة التقليدية .. فما كان يبغي سوى أن يكون قريباً منها على قدر المستطاع ! وصاحت « ماتريونا » : « وهى تجفف فمها بمنديلها : « المسيح قام من بين الأموات ! »

ورد نيكلودوف : « حقا ، لقد قام ! » .. وقبلها . ثم تحول نحو « كاتوشا » ، فاحمر وجهها ، واقتربت منه ، وقالت : « المسيح قام يا ديميتري ايغانوفتش » .. فرد التحية : « حقا ، لقد قام ! » .. وبعد أن تبادلوا قبلتين ، توقفوا وكأنا ساورهما هاجس ما ، ثم ابتسما معا ، وتبادلا قبلة أخرى !

وقال ديميتري : « ان تذهبا الى القساوسة ؟ »
— كلا ، سنبقى هنا يا ديميتري ايغانوفتش ، فنحن نريد أن نستريح قليلا .

قالت ذلك بعناء ، وكأنها فرغت لتوها من مهمة سارة ، لا تريد أن تبدد ذكراها .. ثم استنشقت الهواء بكل ما فيها من قوة الشباب ، وركزت على عينيها اشعاع عينيها الصافيتين ، الوديعتين ، العاشقتين .

وفي كل حب يجمع بين شخصين ، تمر دائما لحظة تبلغ فيها العاطفة ذروتها ، فيتلاشى خلالها كل ادراك ، وكل تفكير .. بل وكل شهوة حسية . ولقد عاش نيكلودوف هذه اللحظة ، في ليلة الأحد المقدس .

وعندما كان يفكر — بعد ذلك — في « كاتوشا » ، كانت تلك اللحظة تمحو ما عداها ، مهما كانت الظروف .. فلقد عرف أن « كاتوشا » أحبته ، وفاض قلبه — هو الآخر — بالحب طوال هذه الليلة واليوم التالي .. وكانت هذه العاطفة هى التى جعلت منهما شخصا واحدا !

الفصل الثالث

الحب الأول

● وها هي ذا يراها - مرة أخرى - على غير توقع ، وقد ارتدت زى المسجونات ، وفقدت اثنتين من أسنانتها بفعل أحد عملائها السكارى .. انها هي بعينها ، بالرغم من أنها أصبحت تحمل الآن اسم « لوباشا » ، أو « لوبكا » !
« يا الهى ! يا الهى ! .. ماذا جرى ؟ »

أجل ، وقعت هذه المفامرة البشعة ، فى الليلة التى تلت ليلة الأحد المقدس .. ففى ذلك المساء ، اخذ « نيكالودوف » يرصد حركات « كاتوشا » . وما ان سمع خطواتها الخفيفة حتى خرج الى الردهة ليقابلها . وراحت تضحك ، وهى تهم بأن تمر ، ولكنه فعل ما كان يمكن أن يفعله أى شخص فى مكانه .. أمسك بالفتاة ولف يديه حول عنقها ، وأراد أن يقبلها !

وقالت وقد تضرع وجهها : « لا تفعل هذا يا ديميتري ايثانوفتش .. لا ينبغي ! » .. وأبعدته يدها ، بينما كان قد أمسكها من خصرها .

وأفلتها « نيكالودوف » استحياء .. فقد ألقى نفسه - لسوء الحظ - فى حالة نفسية لم تسمح له بأن يفهم أن هذا الارتباك كان أجمل احساس هز قلبه يوما ما .. واندفع فى اثر « كاتوشا » ليقبلها من جديد .. وطبع على رقبتها قبلة ، فصاحت مأخوذة ، بصوت مرتعش : « ما هذا الذى تفعل ؟ » .. وبادرت الى الفرار بأقصى ما أسعفتها ساقاها . واذا كان فى (پانوڤو) ضيوف - فى ذلك اليوم - آثروا أن يقضوا ليلتهم هناك ، فقد سئل « نيكالودوف » أن ينام

في حجرة غير التي كانت مخصصة له ، لينزل عن هذه للضيوف . وهرعت « كاتوشا » لتعد له مضجعه الجديد . فما ان عرف انها في الحجرة وحدها ، حتى تسلل حائسا أنفاسه ، في خطوات حذرة ، وكأنه مقبل على ارتكاب جريمة ! وعندما استدارت نحوه ، رأى على وجهها ابتسامة حزينة .. وفاتنة في آن واحد !

وصدمته هذه الابتسامة .. اكان هناك احتمال اذن .. أو فرصة .. لمناضلة الفواية ؟ .. وبرغم ان هذا الهاجس تردد في أعماقه بصوت خافت ، فقد سمعه .. ولكن الرجل الآخر - الكامن في نفسه - أخذ يلح عليه ، موسوسا له في خبث : « الأمر على النقيض .. أنك على صواب ، فاتبع غريزتك ! » .. وطفى هذا الصوت على الهاجس الخافت . وانصاع له « نيكلودوف » ، فضم اليه « كاتوشا » ، وقد استبد به احساس جديد .. احساس قوى ، طاغ .. واذا الشخص المادى - الكامن في نفسه - لا يرفع رأسه على الشخص المثالى فحسب ، بل انه بدأ يسيطر وحده على كل كيان « نيكلودوف » ، فلا يوجهه الا الى السوء . وفي حرص على الا يفلت « كاتوشا » ، اجلسها الشاب على السرير ، وهو يزداد - في كل دقيقة - تحفزا على التمادى . بيد انه لم يستطع ، برغم كل هذا ، ان يحزم أمره ..

وفجأة ، اقترب شخص ما من الباب ، فترك « نيكلودوف » الفتاة ، وهو يقول لها بصوت خافت : « سأحضر الليلة الى حجرتك .. ستكونين بمفردك ، اليس كذلك ؟ » .. وصاحت « كاتوشا » وهى تبتعد عنه : « كلا ، كلا ، كلا ! .. ما من شيء يحملنى على هذا ! »

ولكن .. كان كل كيانها المرتبك يهتف معلنا موافقتها التامة بجلاء ، بينما كانت شفاتها تنطقان بعكس ذلك !

وكانت « ماتريونا باقلوئنا » قد بلغت الباب ، فى هذه الأثناء .. ودخلت الحجرة . وبعد أن رمت « نيكلودوف » بنظرة مليئة بالعتاب ، حدثت فى « كاتوشا » شذرا ، ثم أمرتها بالخروج . وأدرك « نيكلودوف » من أسارير المعجوز كم كان مسلكه مزريا ! .. كان هو نفسه - فى الواقع - يدرك أنه جدير بالازدراء ، ولكن هذا الشعور الجديد .. هذه الفريزة المنحطة ، التى انحدر إليها حبه القديم للفتاة ، كانت تفرض وطأتها عليه بثقل مطرد .. فأخذ يفكر - فى غير اكتراث - فى الطريقة التى يتبعها لارضاء هذا الشعور !

وظل « نيكلودوف » طوال ذلك المساء عاجزا عن أن يسيطر على نفسه .. كان يوقن بأن شيئا بالغ الأهمية يوشك أن يحدث ، وأنه لم يعد يملك أن يكبح جماح عاطفته . وعبثا حاول أن يرى « كاتوشا » ثانية .. كان من الواضح أنها راحت تتحاشى ذلك ، وأن « ماتريونا باقلوئنا » كانت - منذ فاجأتهما فى الحجرة - تراقب « كاتوشا » عن كثب .. فلم ير الفتاة طوال تلك الأمسية ، فضلا عن أنه اضطر الى البقاء مع ضيوف عمتيه .. ثم انفض هؤلاء ليناموا .. وكان « نيكلودوف » يعلم أن « ماتريونا باقلوئنا » تلازم عمتيه ، فتوقع أن تكون « كاتوشا » وحيدة فى حجرتها الصغيرة !

وخرج الى فناء البيت .. كان الليل مظلما ، ولطيفا ، وثمره ضباب خفيف يسبح فى الهواء كالسحاب .. وجرى « نيكلودوف » على الثلج المتجمد ، متجها صوب جناح الخدم ، وقلبه يدق بشدة يكاد معها أن يعجز عن التنفس ، وكأنه ارتكب جريمة بشعة !

وكانت « كاتوشا » تجلس الى منضدتها شاردة الفكر ، جامدة بلا حراك ، تحملق فى الفراغ .. ووقف - هو الآخر - ساكنا خارج نافذتها ، وأخذ يرمقها بنظر لا يحيد ، وهو

يتحرق شوقا لمعرفة ما كانت تفكر فيه ، وما كانت تشعر به .. وظلت « كاتوشا » فترة طويلة في نفس الوضع ، وكأنها سمرت في مكانها . ثم رفعت عينيها فجأة ، وابتسمت .. وما لبثت أن نكست رأسها وكأنها تلوم نفسها .. وأخذ « نيكلودوف » - وهو لا يتزحزح عن النافذة - يتابع كل صغيرة من حركات « كاتوشا » ، وهو يصفى الى وجيب قلبه ، وإلى الأصوات الوافدة من النهر ، على بعد مائة قدم من المنزل : فهناك ، كانت تجرى عملية بطيئة ، في اطواء الضباب الكثيف .. كان الثلج يتشقق ، وكانت قطع رقيقة منه تتفكك في قرقرة ، وتتلطم بصوت شبيه بارتطام الأخشاب .

وظل « نيكلودوف » في مكانه ، يتأمل بشغف وجه الفتاة المنحنى على المائدة ، وقد أثقله التفكير والعذاب . وفجأة ، شعر الشاب باحساس من الشفقة يهتصر قلبه ، فارتجف . ثم ارتاحت نفسه لحظة .. على أنه لم يهنأ بهذه الشفقة غير المتوقعة ، بل انه - على النقيض - خشي أن تشنيه ، فطرق النافذة حتى لا يترك لهذه الشفقة فرصة للسيطرة عليه . وارتعدت الفتاة ، وانقبضت أساريرها !

واقتربت « كاتوشا » بوجهها من الزجاج ، ولكن الفزع الذي تجلى في عينيها لم يتضاءل ، عندما تبينت الطارق .. ومع ذلك فقد ردت على ابتسامة « نيكلودوف » بابتسامة لاح له انها لم تكن تعبر الا عن الخضوع . وأشار اليها « نيكلودوف » أن تلحق به في الفناء ، ولكنها لم تجب الا بهزات من رأسها تعلن الرفض . وازداد « نيكلودوف » اقترابا من النافذة .. غير أن « ماتريونا پاقلوفنا » دخلت حجرة « كاتوشا » - في تلك اللحظة - فاضطر الشاب الى التراجع ..

مشى « نيكلودوف » طويلا في الضباب ، وهو يستمع الى



« ولكن كاتوشا كانت أجمل الجميع دون شرك ، بشوبها الأبيض ، وحزامها
الازرق السماوى ، والش بطاله دوى الذى كان يزين شعها » (ص ١٢٠)

هدير النهر وقرقة الجليد .. تردد ، وهو عاجز عن أن يقرر الرجوع ، أو العودة الى الاقتراب من النافذة . وأخيراً .. وقف بالقرب من النافذة .. كانت « كاتوشا » وحيدة في حجرتها - مرة أخرى - وقد جلست الى المنضدة ، غارقة في أفكارها .

وما ان اقترب « نيكلودوف » من النافذة ، حتى رفعت « كاتوشا » رأسها ، وحملت في الظلام .. وطرق « نيكلودوف » النافذة ، فبادرت « كاتوشا » مهرعة ، لاهثة .. وكان في انتظارها ، في المدخل ، فما ان رآها حتى أخذها بين ذراعيه ، وقبلها ..

وخرجوا معا الى الفناء .. كلن « نيكلودوف » يتعجب لمعجزة عن ارضاء رغبته .. الرغبة التي انتقلت منه الى « كاتوشا » شيئاً فشيئاً .. وفي هذه اللحظة ، ظهرت « ماتريونا بافلوفنا » عند عتبة الباب ، ونادت الفتاة ، فانتزعت هذه نفسها من بين ذراعى « نيكلودوف » ، وعادت الى جناح الخدم .

ولم يعدل « نيكلودوف » عما انتواه . وبخفة بالغة ، سار نحو باب حجرة الفتاة ، الملاصقة لحجرة « ماتريونا بافلوفنا » .. وسمع المعجوز تتلو صلاة المساء .. وما لبث أن تقدم في حرص بالغ - حتى لا تحدث أخشاب الارضية صريراً تحت قدميه - فعبر باب المعجوز ، ثم وقف برهة ساكناً - بلا حراك - بجوار باب الفتاة .. ونفخ في ثقب قفل الباب ، فقفزت « كاتوشا » من سريرها - ولم تكن قد نامت بعد - وتوسلت اليه أن يتركها . وانفجرت تقول : « ماذا تفعل ؟ .. ماذا يحدث لو سمعت عمثاك ؟ » .. وان كانت نظراتها قد راحت تهب به : « يا حبيبي ! يا حبيبي ! .. انك تتدري عن يقين اننى لك ، وان بوسعك أن تفعل بى ما تشاء ! »

وأخذ الشاب يرجوها - فى الحاح - أن تفتح الباب ،
 فلم تلبث أن أذعنت .. وبدا كأن الباب قد فتح من تلقاء
 ذاته ! .. وكان « نيكلودوف » يعى أن تصرفه خسيس ، دنىء ،
 غير أنه كان يدرك كذلك أن الكل يفعلون ما كان يفعل !
 واحتواها بين ذراعيه كما وجدها : عارية الذراعين ، وقد
 ارتدت منامة من صوف خشن ، ثم رفعها عن الأرض ،
 وحملها .. وأحست « كاتوشا » بلامسة عضلات الذراعين
 اللتين حملتاها ، وهى عاجزة عن إبداء أقل مقاومة !
 وهمست وهى تلتصق بكل بدنهما بجسم الشاب :
 « آواه ! .. ما ينبغى هذا ! .. ألا دعنى ! »

الفصل الرابع

الندم

● هكذا وقع ذلك الأمر البغيض ..
 ولكنه لم يكن بالأمر المزعج - فى ذاته - بقدر ما انحصر
 الازعاج فى الطريقة التى تصرف بها « نيكلودوف » عقب ذلك :
 فلقد سافر فى الصباح التالى ، لأن الموعد المحدد لوصوله الى
 كتيبتيه ، كان قد فات .. ولأن الكونت « شوينبك » Shoenbek
 - أحد أصدقائه المقربين - كان قد حضر الى الضيعة ليرافقه ،
 فسرعان ما رحل الاثنان ..

وهكذا اختفى « نيكلودوف » ، بعد أن اغوى الفتاة التى
 أحبتة . ولم يبد مسأله - اذ ذاك - طيبا ، ولا بدا سيئا ..
 لا شريفا ، ولا خسيسا .. فان أنكى ما فى الامر ، أن
 « نيكلودوف » نفسه لم يفكر فيه اطلاقا !

وها هو ذا - وهو جالس فى قاعة المحكمة - قد تذكر
 بجلاء تلك الأفكار والمشاعر التى حاصرتة ، فى الايام الأخيرة
 من اقامته عند عمته .. ثم تذكر - بوجه خاص - الأمسية

التي انطلق فيها مع الكونت « شوينبك » في مركبة عمليه ،
في جو فظيع ، وتحت مطر يخالطه البرد فيحجب الرؤية عن
الأعين .. وقد اجتازا تسعة عشر فرسخا - تفصل بين
(بانوفو) وأقرب محطة للسكك الحديدية - في طريق مليء
بالمستنقعات .. كانا يجلسان في هدوء ، وقد احتميا بالمظلة
الجلدية ، من الأمطار التي كانت تضربها بشدة .. وكان كل
منهما غارقا في تأملاته : « نيكلودوف » يفكر في أن من حسن
الحظ أنه أوتى عمطان تعبدانه ، وتشعران - في الوقت
ذاته - بالسعادة اذ تريانه ذاهبا الى الحرب .. كانتا بدون
شك تريانه شجاعا ! .. كذلك جال بخاطره أن الكونت
« شوينبك » قد חדس علاقته بكاتوشا ، فشعر بقدر غير
قليل من الارتياح والرضى .. فلقد قال له صديقه ، عندما
أبصر « كاتوشا » لأول مرة :

- أرى شيئا من الغرابة في تعلقك المفاجيء بهميتيك ! ..
فها أنتذا تناكأ هنا منذ أسبوع ، على ما اظن .. ومع ذلك فانت
على صواب يا عزيزي ! .. لو أنني كنت مكانك ، لفعلت الشيء
ذاته .. يا لها من فتاة فاتنة !

وقال نيكلودوف في نفسه : « انه يحسدني ، ويظنني
- هو الآخر - رجلا ذا دهاء ! » وبدأ من العلى أن هذه
الملاحظات قد سرتة .. كما كانت تطربه الأفكار والذكريات
التي تفاعلت في ذهنه ، فيما يتعلق بالحب الرائع ، الفريد من
نوعه ، الذي أبدته له « كاتوشا » .. اما الندم فلم يساوره
اطلاقا ! .. بقيت في نفسه ذكرى مؤلمة .. ذكرى اللحظات
الأخيرة في علاقتهما .. تلك اللحظات التي خلت من السحر
والشاعرية ، والتي كان يفضل عليها اللحظات الممتعة ، التي
قضاها معها في الكنيسة عند بزوغ الفجر !

وفكر - بين ما جال بخاطره من أمور عديدة - فى التحاقه
الكتيبة ، والاستقبال الودى الذى يرتقبه من زملاء المستقبل ،
ذ يغتبطون لاقدامه على الالتحاق بالجيش العامل ، برغم
مركزه . . انه لخليق بأن يظفر بالحب والإعجاب ، لوسامته ،
لحسن منظره فى الزى الرسمى وسرواله الأزرق الضيق ! . .
أيقن من أنه سيمتاز - فى الجبهة - على أقرانه ، وسيعلو
عليهم فى الدرجة ، وسيظفر بالأوسمة . . وما ان تنتهى
الحرب ، حتى يعود الى العاصمة ، فيقدم استقالته ، ليبين
جميع أصدقائه قلة اهتمامه بهذه المكافآت التى استحقتها
تعرض حياته للخطر !

وبطبيعة الامر ، راح يفكر فى « كاتوشا » أيضا . وكان
يشعر بالسرور اذ يسترجع اللحظات الممتعة . اللحظات التى
فرغت فيها اليه عند مدخل جناح الخدم . . واللحظات التى
أسرته فيها بحياتها . . واللحظات التى شهدت استسلامها
أخيرا ، عندما تناولت وجهه بين يديها ، وتمتمت شفقتها
المرتعشتان : « اننى اوافق على كل شيء من أجلك ، ما دمت
أحبك ، يا حبيبى . . اننى أحبك وكفى ! »

. . كان كل هذا عذبا ولاشك ، ومع ذلك فقد كان هناك
شيء ، يعذبه . . مجرد ذكرى صغيرة . . ذكرى تتعلق
بالدقيقة الأخيرة التى سبقت رحيله ، عندما نهض عن المائدة
ليتأهب للسفر ، فسار فى الممر ليودع « كاتوشا » ، ويدس
فى صدر ثوبها مطروفا به بعض المال .

كان ذلك تصرفا مقبها ! . . أرادت « كاتوشا » - وقد
تخرج وجهها ، واستبد بها الارتجاف - أن ترفض المطروف ،
ولكن « نيكلودوف » همس لها - وهو لا يقل عنها ارتباكا -
بكلمات لعلها كانت : « كلا ، بل خذيه ! » . . ثم رحل فجأة !

● وفي طريقه الى محطة السكة الحديدية، أخذ يستعرض - في ذهنه - كل هذه الافكار والذكريات . ولكنه لم يكن يشعر بأى ندم على فعلته . فان شخصيته الأخرى . . الشخصية التى كانت مسيطرة عليه عندما أقام فى هذا البيت منذ عامين ، وعندما كان يقرأ مع « كاتوشا » صفحات لتورجنيف ، والتى كانت تبعث الدماء الى وجهه ، وتجعل الكلمات تتعثر على شفثيه اذا ما تكلم عن أمور أكثر جدية مما ينبغى لشخص فى سنه . . هذه الشخصية لم تعد بعيدة عنه فحسب ، بل انه كان قد نسيها تماما ! . . كل ما كانت هذه الشخصية تؤمن به ، بصدد العلاقات بين الرجل والمرأة ، أصبحت الشخصية الجديدة - التى صار إليها - تجهله تماما !

ولهذا ، كان « نيكلودوف » - بعد كل ما جرى - يعرف انه لم يسلك مع « كاتوشا » سوى المسلك المعتاد . . كما فعل واحد من أعمامه - مثلاً - اذ أنجب طفلاً على أثر لقاء عابر . . وكان يدرك أن « شوينيك » - الذى أصبح يحسده - كان خليقاً بان يفعل فعلته ، لو انه كان فى مكانه . . كانت هذه حال المثات ، بل الآلاف من الرجال ، فى الحياة الواقعية ، وفى الروايات على السواء !

وكان التصرف الوحيد المألوف - فى هذه الظروف - هو اعطاء الضحية نقوداً . وقد بادر « نيكلودوف » فدرس فى صدر ثوب « كاتوشا » مائة روبل ، فى لحظة الوداع . وبهذا أصبح بمنأى عن اللوم . أما مستقبل الفتاة ، فلم يكبد « نيكلودوف » نفسه عناء التفكير فيه . . لم يكن يفكر إلا فى نفسه - وهو يجلس الى جوار « شوينيك » ، فى المركبة - طيلة الطريق ، حتى بلغا محطة السكة الحديدية . . بل انه استمر على هذه الحال بعد ذلك .

غير أن شعورا عابرا من تأنيب الضمير ، تسلس الى نفسه — ذات لحظة — دون أن يفطن ، وعصف به .. فلم تلبث قسوة ايلام هذه التوبة أن طردت تلقائيا ، بعد ذلك ، كل ذكرى للمغامرة ! .. واذا « نيكلودوف » الذى اعتاد — فى الماضى — أن يكون صادقا مع نفسه كل الصديق ، قد انقلب شخصا هادىء النفس ، مرحا ، بالرغم من أنه فقد الفتاة التى أحبته ، والتى تسبب فى ضياعها مزاياها الى انها ما كانت لتأبى عليه شيئا ، لفرط حبها اياه ! .. وما أن وضع قدميه فى القطار ، حتى انصرف الى لعب الورق مع اصدقائه .. وما لبث — بعد بضع ساعات — أن تركهم ، وذهب يتأمل الليل خلال نافذة مقصورته .. واذا كانت المركبة مريحة ، مشرقة بالضوء ، فقد بدا الليل — خارج المركبة — كئيبا موحشا .. واخذت قطرات المطر المختلطة بقطع الثلج ترتطم بجدران المركبة ، والماء يسيل على زجاج النافذة ، وان لم يمنع « نيكلودوف » من أن يرى شجيرات واكواما من الجليد فى الخلاء الممتد على مدى البصر خارج النافذة . وفجأة ، خيل اليه أن « كاتوشا » تجرى وراء القطار ، فى هذه الصحراء المظلمة ، بين الشجيرات واكوام الجليد ، ببسطة يديها لتلعبه ، اذ أضاء مستقبلها ، ثملقى بها كما يلقى بخرقة يالوية لم يعد فى حاجة اليها !

وفجأة ، تذكر بجلاء انه كان قد طرد هذه الفكرة من رأسه ، وأنه نجح فى ذلك بسهولة كبيرة .. وناداه « شوينبك » ، فى تلك اللحظة : « قل لى ، ان تأتى ؟ .. اذا كنت غير راغب فى اللعب ، فهذا امر آخر ! » .. فبادر نيكلودوف قائلا : « بلى .. اننى قادم ! »

وما ان عاد الى جوار اصدقائه ، حتى كان قد نسي الرؤيا - التى خامرتة - تماما .. ولم يعد يتذكرها الا اليوم ، وهو جالس فى المحكمة ، فاذا بها تثير أشجانه .. كانت « كاتوشا » بعينها ، هذه المرأة التى كان يراها امامه ، ملتفة فى معطف المسجونات .. وهى هى التى تراءت - للحظات وجيزة - لخياله المضطرب ، فى الماضى !

لم يكن قد فكر فيها - منذ ذلك الحين - قط .. وعندما انتهت الحرب ، وفى طريق عودته ، عرج « نيكلودوف » - مرة اخرى - على ضيعة عمته ، حيث قضى بضعة ايام .. وهناك علم أن « كاتوشا » لم تعد فى المنزل ، فقد غادرت لتلد فى مكان آخر .. وانها - بعد أن وضعت مولودها - انحرفت .. استسلمت لتيار الانحراف !

كانت هذه - على الأقل - هى الشائعات التى انتشرت عنها . وعندما كلمته عمته شخصيا فى هذا الموضوع ، استولى عليه اسى لا يوصف ، وشعر بخجل طاغ ، حمله على أن يقرر بعزم - فى احدى اللحظات - أن يبحث عن « كاتوشا » وطفلها .. ولكنه لم يبذل اية محاولة ، بعد أن انجابت لحظة الانفعال الأولى ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن خجله ، تانيب ضميره كانا من القسوة بدرجة دفعته الى عدم العودة للتفكير فى هذا الامر . وهكذا كف عن التفكير فى ذنبه ، وان لم ينسهِ تماما ! .. وكان هذا اسهل الحلول ! .. غير انه ظل يدرك - فى قرارة نفسه - انه قد ارتكب شرا ، واظهر قسوة ونذالة .. وازاء يقينه - المستقر فى اعماقه - بأنه قد ارتكب جرما ، فقد أحس أنه غير اهل لأن يحاكم احدا ايا كان .. بل ولا أن يقابل نظرات الناس اليه !

● وكان هذا الحكم ، الذى راح يصدره على نفسه - من آن الى آخر - يتفق مع النزعات الاخلاقية التى رانت الى

سبات ، فى أعماقه . بيد أن ثمة حكما آخر نهض ليناقضه . .
حكم أهل الوسط الذى كان ينتمى اليه ، فقد كانوا يرون أن
لمسلكه ما يبرره . . ليس هذا فحسب ، بل انه كان جديرا
بالاطراء كذلك . . فضلا عن أنهم كانوا يبيحون اتخاذ موضوع
كهذا مادة للفكاهة - كما كان شوينبك يفعل - بل مادة للزهو
والافتخار !

ولقد تغلب حكم الوسط - منذ البداية - على حكم
الضمير ، فأخذ « نيكلودوف » يتباعد - شيئا فشيئا - عن
الحياة الصالحة التى عاشها طويلا . كان قد ارتكب دناءة
خسيصة ، فلما عزف عن الاعتراف بذلك ، قطع نهائيا كل
صلة كانت تربطه بالأخلاق الصالحة . كان ثمة شيء - لا سبيل
الى مقاومته - يطوقه ، فأصبح مقضيا عليه أن يكون عبدا
لشهواته مدى الحياة !

ولكن الله شاء أن يلتقى « نيكلودوف » و « كاتوشا » من
جديد ! . . وهاهو - دون سواه ! - قد استدعى لمحاكمتها . .
هى بالذات ! . . ذلك لأن المرأة التى مثلت أمامه ، كانت نفس
المخلوقة الوداعة ، اللينة ، الخجول التى استسلمت له
- فيما مضى - باطمئنان وسذاجة ، دون أن تفكر فى شيء ،
ودون أن تطلب شيئا ! . . ولم يستطع « نيكلودوف » أن
يحول بصره عنها ، وقد تمثلت له كما كانت وهما يلعبان معا
. . أو وهى تجلس بالقرب منه فى (پانوڤو) ، تصفى اليه
وهو يقرأ عليها مؤلفات « تورجنيف » . . وتصورها عقلة
المضطرب كما كانت فى الكنيسة - ليلة الأحد المقدس -
مرتدية ثوبا ناصع البياض ، وقد زينت شعرها الأسود
بشريط . . ثم تمثلها فى الصورة التى رسمها لها قرار الاتهام ،
وهى تطالب بأجرها مقدما ، ثم وهى تواصل احتساء

((الكونيالك)) برغم سكرها .. واخذ يتأملها في مصطف السجن الذى كان واسما فضفاضا ، وقد بدا الارهاق على قسمااتها ، وشحب وجهها في ذبول ، وسقطت اثنتان من الأسنان الأمامية في فمها ، وبج صوتها !

وقال « نيكلودوف » في نفسه : « كلا ، كلا .. هذه ليست الفتاة الرائعة ، اللطيفة ، الساذجة التى عرفتها في فترة اقامتى الأولى عند عمى ! »

اذن ، فمن تكون هذه المخلوقة البائسة ، المائلة أمامه ؟ .. ليست هى « كاتوشا » ، برغم اسم « لوباشا » الذى اشتهرت به ؟ .. انها « كاتوشا » التى عرفها في الماضى ! .. فضلا عن ذلك ، فان هذا الحطام البشرى ، المائل أمامه ، من صنعه هو ! .. فلو لم يحدث شيء ، في تلك الليلة المشهودة ، ليلة الأحد المقدس ، لما قدر لتلك المرأة المرتدية زى المسجونات أن يكون لها وجود هنا ، ولا كان يكون في ماضيها تجار سكارى ، ولا هذه البشاعة التى تجل كل كيانها ، من قمة رأسها الى أخمص قدميها . وبدا تفاعل اليم يجرى في نفس « نيكلودوف » ، اذ تجلت له كل قسوة فعلته ، وكل خستها ، وكل دناءتها .. وتهمت ذلك الحجاب الذى أخفى عنه جريمته أكثر من أربعة عشر عاما .. واخذ يسأل نفسه : كيف استطاع أن ينسج هذا الحجاب ، وان يتوارى وراءه ؟!

من الواضح أن الجميع - جميع الرجال دون استثناء - يفعلون نفس الشيء .. ولكن هذا ما كان ليفر من موقف « كاتوشا » ، ولو كان الملائكة انفسهم يسلكون المسلك ذاته .. فما كان من سبيل الى تهويض ما خسرتة المسكينة .. وهذا الذى خسرتة ، هو السبب الوحيد لما آلت اليه ..

وفى الوقت الذى انقشعت فيه الغمامة عن بصيرته ، لم يكن يملك سوى أن يدرك أن المسئولية بأكملها تقع على عاتقه هو .. ومن ثم كاد الضيق أن يخنقه ، وقال فى نفسه : « يا للخزى ! .. أى عار يلحقنى اذا عرف الناس ذلك ! » .. ولكن تلك الفكرة لم تزد على أن جالت برأسه ، وما لبثت أن تلاشت كالبرق ، دون أن تترك أثرا !

« ولكن ، ماذا يهم ؟ .. ليكن ! .. أن الخزى لن يخلجنى أمام الناس ، بل أمام نفسى ، وأمام الله .. أمام هذه النفس ، وهذا الاله اللذين كنت أعرفهما فى الماضى ، ونسيتهما فى ضلال الجهالة ! »

وتبين « نيكلودوف » - دفعة واحدة - كل دنيا حياته وخستها .. كيف هجر المرأة التى أحبته ، والتى أحبها هو نفسه ، ورزق منها بطفل ؟ .. كيف ينسى كل هذا ، ويتزوج من امرأة أخرى ، ويفيد - أعظم الفائدة - من سخرة العبيد الذين يفلحون الأرض بعرق جباههم ، ويدعى - مع شعوره بهذا الجرم - أنه رجل فاضل ونو أفكار حرة ؟

ومن الغريب أن ما حدث فى فترة اقامته الأولى عند عمته - عندما كانت أمانيه المتعلقة بالحياة الزوجية ، قد امتزجت أقوى امتزاج بأفكاره المتعلقة بالعدالة فى توزيع العمل ، والقضاء على الرق ، ونبذ المكاسب غير المشروعة - حدث اليوم أيضا ، فاذا أفكاره المتعلقة بكاتوشا ، تتجاوب مع رغبته فى أن يحقق أخيرا خطة كان قد تمثلها بكل دقائقها منذ زمن بعيد !

وبدا له - فجأة - أن مشروع زواجه من « آلين » لا يقل جرما عما فعله طوال حياته .. الحياة التى كانت تقوم على استغلال العبيد الكادحين فى أرضه .

« كيف أستطيع أن أتزوج ، وأنا قد تزوجت فعلا ،
 وها هي ذى زوجتي ماثلة أمامي الآن ؟ .. كيف يمكنني أن
 أكون ذا نفع للبشرية وأنا أنتمى لفئة من أشد الناس اضرارا
 بها ؟ .. »

● **بينما** كانت هذه التفاعلات الفكرية الأليمة ، تقلب نفس
 « نيكلودوف » رأسا على عقب ، ظلت اجراءات العدالة ماضية
 في مجراها ، تواصل سيرها التقليدي بعيدة عن التأثير ..
 وبدأت تلك العدالة في نظر « نيكلودوف » - وقد تشبعت
 بأفكار سابقة ، وشكليات لا يقل بعضها عن بعض حمقا
 وبطلانا - أبشع الأمور التي يمكن تصورهما ، وأكثرهما مسخا
 وتشويها لكل ما هو معقول ومقدس في الانسان .. فإذا به
 - وهو اللص الفاسق ، هاتك الأعراض - يجلس في ذلك
 المكان ، ويستمع الى الشهود ، والى الأسئلة والاعتراضات ،
 ليحكم طبقا لضميره وعقيدته ! .. وهذا الرئيس الغريب
 الأطوار ، البارع في الرقص ، لابد أن ضميره مثقل بوزر جرائم
 عديدة من هذا النوع .. وكل الآخرين - سواء المحلفين أو
 أعضاء المحكمة - قد تجمعوا في هذا المكان ، ليحاكموا اناسا
 تسببوا هم أنفسهم في هدم حياتهم !! .. وود « نيكلودوف »
 - في إحدى اللحظات - أن ينهض ويفادر القاعة ، ولكنه لم
 يجد في نفسه القوة لخرق الجو المهيّب ، ولا الشجاعة لازعاج
 الحاضرين !

واستغرق « نيكلودوف » ثانية في تأملاته ، بمزيد من
 التعمق ، فتبين - شيء من الدهشة - أن « آلين كارمالين »
 الجميلة ، الأنيقة ، الحنون ، قد انمحت من قلبه ، لا لأنها
 كانت ثقل عن « كاتوشا » في شيء ، وإنما لأن كل ما كان يتعلق
 بكاتوشا كان قد بدأ يأخذ أهمية ومعنى لا يعود ازاءهما وجود
 آلين وكل مثيلاتها في العالم !

وبقوة ارادة جبارة ، ارتد « نيكلودوف » الى الحالة النفسية التى كان عليها قبل أربعة عشر عاما ، عندما كان جبه لكاوشا أفلاطونيا .. وبوعى كامل للتحول الذى اعتراه ، لم يدر بعد ما بوسعه أن يفعل .. بيد أن أمرا واحدا بدا له أكيدا ، الا وهو انه لن يكون بعد اليوم سلبيا ، ولا خاضعا للمؤثرات الخارجية ، بل ستغدو حياته ايجابية ، تنبعث حوافزها من نفسه وشخصيته ، وتسير بهدى من صوت ضميره وحده . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد قرر شيئا بالنسبة لكاوشا والعلاقات التى ستقوم بينهما ، فقد شعر بأنه لابد له من أن يدنو منها - فى أقرب فرصة - وأن يتحدث اليها على انفراد !

وقال فى نفسه : « ماذا يجرى لو ذهبت فقابلت رئيس المحكمة فى الحال ؟ .. ولكن لا ، سيكون من الحمق ان أطلع الجميع على علاقتي القديمة بالتهمة ، وقد يسقطون أهليتى لمركزى هذا . على انه لابد من أن أساعدها .. أجل ، يجب أن أساعدها .. هذا هو المهم الآن ! »

واستفرقت القضية وقتا طويلا . فبعد الاستماع الى اقوال الشهود ، ومواجهة هؤلاء بالمحامين والمتهمين ، وبعد الاستجابات التفصيلية للمتهمين ، أعلن رئيس المحكمة انتهاء الاجراءات ، وأعطى الكلمة للمدعى العام ، الذى انطلق - بلفه متفجرة - يحمل على المتهمين ، لا سيما « كاترين ماسلوفا » . اذ عمل جاهدا على اثبات أنها - عندما ذهبت لاحضار نقود سميلكوف من الفندق - كانت قد عقدت عزمها على سرقة .. بل انها ما اصططحته الى بيت الدعارة أصلا ، الا لهذه الغاية !

واذ اختتم المدعى مرافعته ، أعطيت الكلمة لمثلى الدفاع مباشرة ، رغبة من المحكمة فى الانتهاء - بأسرع ما يمكن - من

قضية بدا كل شيء فيها واضحا تمام الوضوح .. فتكلم محامى « ايفيمى » أولا ، ثم تبعه محام منتدب - من قبل المحكمة - للدفاع عن « سيمون ايباتوف » . وتكلم بعد ذلك محامى « كاترين ماسلوفا » ، وكان شابا حديث التخرج فى كلية الحقوق ، فبذل جهدا كبيرا - ولكن بدون حذق وخبرة - لاثبات أن موكلته لم تضمّر قط أية نية لدس السم لآى شخص .. واذا كانت قد استولت على خاتم ، فانما قطعت ذلك وهى غائبة الوعى بتأثير الخمر .

وكما كان متوقعا ، لم يترك المدعى العام تلك المرافعات دون رد ، ففند كل الحجج ، اذ كان المتهمون فى نظره - لا سيما كاترين ماسلوفا - سفاحين وأشقياء خطرين على المجتمع !

وأعطى الرئيس الكلمة - بعد ذلك - للمتهمين : فتكلمت « ايفيمى » طويلا ، دون أن تقول شيئا جديدا .. واكتفى « سيمون ايباتوف » بأن قال : « لست مذنباً ، ولا يد لى فى الجريمة التى تتهموننى بها ! » .. وحان دور « كاترين ماسلوفا » ، فارادت أن تقول شيئا ، ولكن قواها خانتها فلم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة ، وانهمرت دموعها . وما أن بدأت « كاتوشا » فى البكاء ، حتى عجز « نيكلودوف » عن أن يسيطر على مشاعره ، وبذل جهدا ملحوظا ليكبج دموعه ، حتى أن الجالسين بالقرب منه ، أخذوا يلتفتون نحوه !

وأخيرا ، لخص الرئيس القضية ، فبدأ بعرض طبيعة الاتهام مرة أخرى ، ثم أوضح كيف ينبغى ادراك معانى وحوافز السرقة والقتل ، وما اليهما .. ولم يفعل أن يسهب شرح واجبات المحلفين ، وما يترتب على قرارهم .

وبالرغم من أن ذلك كله كان مطابقا لما ورد فى سياق الدعوى ، فإن الدعوى ذاتها - كما بدا لنيكلودوف - كانت

تفتقر افتقارا واضحا الى ذلك العنصر الذى كان القضاة يعملون على ابرازه .. كانت خالية من العدالة والتفكير السليم .. خالية من العدالة ، لأنه اذا كان هناك مجرمون فى هذه القضية ، فان هؤلاء المجرمين هم - فى المكان الأول - اصحاب بيوت الدعارة ، والذين يترددون عليها ، والحكومة التى تعترف بتلك الدور .. واكثر اجراما من هؤلاء جميعا ، أمثال ((نيكلودوف)) الذين يمدون هذه البيوت بالنساء اللاتى يهملن فيها ! .. غير ان هؤلاء المجرمين الحقيقيين لم يكونوا بمنجاة من المحاكمة فحسب ، بل ان احدا لم يفكر فى اتهامهم .. ولم يتناول الاتهام الا اناسا بئسين ، يقومون بدور ثانوى فرضته عليهم الاوضاع التى لا قبل لهم بدفعها عنهم !

وما كان فى ذلك ايضا اى اثر للتفكير السليم ، ذلك لانهم بدلا من أن يمنعوا تكرار مثل هذه الأمور البشعة ، وينقذوا مثيلات « كاتوشا » فى المستقبل ، ويساعدوهن على الخروج من الهاوية التى ترددين فيها .. بدلا من ذلك ، كان المرء يرى - بفضل « كاتوشا » ومثيلاتها - موظفين يتقاضون مرتبات ، ويرتقون فى الوظائف ، ويستعرضون بلاغتهم ومهارتهم ..

وبعد ثرثرة لا نهاية لها ، تشهد بمرونة عقلية نادرة - ولكنها ثرثرة بلا قيمة ولا معنى - دفع الرئيس للمحلفين بقائمة تحوى مجموعة من الأسئلة . فنهض المحلفون ، وساروا الى الحجرة المجاورة ليتداولوا فى الامر .. وألقى « نيكلودوف » - فى طريقه - نظرة اخرى على « كاتوشا » ، فاذا بها قد بدأت تسترد قواها الخائرة .. كانت منفعلة ، مضطربة الأعصاب ، تتهامس مع زميلها وعيناها تلمعان .. بل كانت تبتسم ايضا ! .. وما أن دخل المحلفون حجرة المداولة ، حتى أسرع كل منهم باشغال سيجارة .. وتبعت لحظة الاسترخاء الاولى مناقشة حامية ..

قال التاجر ، الذى كان أول من قابل « نيكلودوف »
فى المحكمة :

— لا يد للمرأة الشابة فى هذه الجريمة ، انما صديقها
هما اللذان دفعها — بلا شك — الى ذلك .

فعارض أحد العسكريين — وكان كولونيلا متقاعدا — هذا
الرأى بشدة . واذا ذلك ، تدخل « نيكلودوف » فجأة ، وعمل
جهدا على اثبات ان « كاترين ماسلوفا » لم تكن قد أضمرت
نية سرقة التاجر ، فى اللحظة التى ذهبت فيها الى الفندق
بمفردها ، ومعها مفتاح حقيبته . . بل أن الأمر كان على
النقيض ، اذ أن وصولها المفاجيء ، غير المنتظر ، أوحى الى
« ايباتوف » و « ايفيمى بوتشكوفا » بفكرة انتهاز الفرصة
المواتية ، والقاء التهمة كلها عليها !

ولم يكن « نيكلودوف » — فى البداية — يفكر فى الانحياز
الى « كاتوشا » ، ولذلك فقد مضى يناقش الكولونيل ، وهو
لا ينتوى الدفاع عنها علانية . ومع ذلك ، فقد انتهى الأمر بأن
اقنع الجميع ، ما عدا المستخدم التجارى ، الذى صاح :
« انكم لتعرفون ان هؤلاء الفتيات جميعا ، على شاكلة
واحدة ! » . . ثم أخذ يقص عليهم كيف أن فتاة منهن ،
سرت — ذات مرة — ساعة أحد أصدقائه . وأبى محلف
آخر فروى قصة مماثلة . .

واذا ذلك قال رئيس هيئة المحلفين : « كلا يا سادة ! . .
لن نتمكن من التفاهم قط . فلنجلس أولا ، ونبدأ بالترتيب
. . ان لدينا عددا كبيرا من الأسئلة ، يجب أن ندرسها الواحد
تلو الآخر ! » . . وعندما جلس الجميع ، أخذ يقرأ الأسئلة
الأولى ، التى كانت تتعلق بايفيمى بوتشكوفا وحدها . .
وأجمع المحلفون على اعتبارها مذنبه ، ولكنهم رأوا ان هناك
ظروفا تحيط بها ، وتشفع فى تخفيف ذنبها . . وجاء دور



النجمة السوفيتية الحساء «تاماراسيومينا» كما بدت في دور «كانوشا ماسلوقا» في الفيلم السوفييتي الجديد الذي يصور رواية تولستوى الخالدة «البعث» (التي تقرأ مخطوطها الاول في هذا العدد) .

« سيمون ايباتوف » ، فاعتبره الجميع مذنباً ، وما من ظروف مخففة .

أما المتهمة الثالثة ، فقد أثار امرها مناقشة حادة ، ومع أن رئيس المحلفين أصر بشدة على أن « كاترين ماسلوفا » كانت مذنبية في الحالين - أى قتل التاجر بالسهم ، وسرقة نقوده - فإن هذا لم يمنع التاجر من أن يعارض هذا الرأي بصنف ، وأن يوفق الى انقاع الكولونيل والموظف التجارى وعدد من المحلفين . غير أن رأى الرئيس تغلب في النهاية ، لا سيما أن الشعب كان قد برح بمعظم المحلفين ، فجعلهم على استعداد أن يؤيخوا الرأى الذى بدا أنه ارضى الاغلبية ، وبلتلك يريحون انفسهم !

وقصارى القول ، أن « كاترين ماسلوفا » اعتبرت مذنبية ! ودق رئيس المحلفين الجرس ايدانا بانتهاء المداولات ، فدس الشرطى - الذى كان يقف بجوار الباب - سيفه في غمده ، بعد أن ظل مشمره طيلة خلوة المحلفين في حجرتهم . . وما لبث المحلفون أن ساروا عائدين الى قاعة المحاكمة تباعاً ، ثم أقبل القضاة في اثرهم .

وتقدم الكولونيل من رئيس الجلسة ، محيطاً نفسه بجو من الاهمية ، وقدم اليه ورقة الاسئلة ، قالقى عليها الرئيس نظرة ، ثم تحول يتشاور مع مساعديه . واذ كانت كل الاجابات مصوغة في قالب يطابق الاسئلة الموضوعة ، فانه أعاد الورقة الى رئيس المحلفين ، ورجاه أن يقرأها بصوت مرتفع . فنفذ المحلف ذلك في الحال . واذ ذاك وجه الرئيس خطابه الى وكيل النيابة ، ليعرف أية عقوبة يقترح توقيعها على المتهمين .

وبدا أن وكيل النيابة كان مهموما حزينا ، لعدم نجاحه في القضاء على المتهمين تماما ، فأخذ يتصفح القانون ، حتى اذا وجد بغيته في مكان ما من المجلد ، وقف نصف وقفة ، وقال وهو محنى الظهر : « اقترح معاقبة ايفيمى بوتشكوفا وفقا للمادة ١١٧ من قانون العقوبات ، وسيمون ايباتوف طبقا للمادة ١٨٠٣ . اما كاترين ماسلوفا ، فاقترح أن توقع عليها العقوبة الواردة في المادة ١٨٣٣ ، الفقرة (٢) ، من نفس القانون » .

وفي صمت كصمت الموتى ، خرج القضاة ليتداولوا الأمر فيما بينهم . وسرعان ما انصرف أغلب الذين كانوا يجلسون في القاعة ، ترويحاً عن أنفسهم ، ريثما تصدر الأحكام . . ولم يبق في القاعة سوى المسجونين ، اذ ظلوا في أماكنهم ، ومن ورائهم الجنود ، وقد أمسك كل منهم بندقية ، مشهرا « السونكى » .

وتصمد « نيكلودوف » أن يمر جد قريب من القضبان ، حتى يرى « كاتوشا » عن كثب . فاذا بها قد تغيرت كثيرا ، فرسم ائزمن بعض التجاعيد على وجهها ، وأصبحت أهدابها - التي كانت في الماضي جميلة جدا - قصيرة . . ولكن عينيها الجميلتين السوداوين ، ظلتا تحتفظان بنفس التعبير الغامض الساحر . ولقد رفعتهما - عندما مر « نيكلودوف » أمامها - ورمقته بنظرة عابرة ، شاملة . . ثم خفضت رأسها ، دون أن تتعرف عليه . . فما كان أبعد عن خاطرها من فكرة الالتقاء به هنا !

وقال نيكلودوف لنفسه : « نعم ، ما من عجب في أن يقع تاجر مخمور في حبها ، ويعهد اليها بفتح حقيبتها . . هذا أمر طبيعى ! »

الفصل الخامس لوعة

● ما لبث القضاة أن عادوا الى القاعة ، فوقف الجميع ، ثم جلسوا في الحال ..
وأعلن الرئيس الحكم : لقد قضى على كل من « ايغيمى بوتشكوفا » و « سيمون ايباتوف » بالسجن عامين مع الأشغال الشاقة .. أما « كاترين ماسلوفا » ، فقد حكم عليها بالحرمان من كل الحقوق المدنية ، وبالنفي الى (سيبيريا) .
وغادر « نيكلودوف » المحكمة في الساعة الخامسة بعد الظهر ، وعاد الى منزله على قدميه ، وهو شارد اللب ، يسير بخطوات شبه آلية ، متنقلا عبر شوارع (موسكو) . ومر في طريقه - بقصر « زناميينكا آربات » Znamienka Arbate وكل كيانه مفعم بالأحاسيس المتداخلة ، المتشابكة ، التي استولت عليه ، وبالأفكار التي ولدتها فيه تلك الأحاسيس ، فاذا الذكريات تشغل كل ذهنه : تذكر الفترة التي عرف فيها « كاتوشا » ، ثم ما رآه في المحكمة في الصباح .. واسترجع - تباعا - رؤى رحلته الأولى الى (يانوقو) ، ثم زيارته الثانية لعمتيه ، وهو في طريقه الى الجبهة .. واستعرض الأفكار التي ساورتها - في ذلك الصباح بالذات - وكيف كان على وشك الزواج من « آلين كارمالين » . هذا التحول التام ، جرى بطريقة غير محسوسة .. بالنسبة اليه ، على الأقل .. الآن فقط ، بدأ يفتن الى أنه قضى تلك الأعوام الأخيرة متواريا خلف ستار من نوع ما ، كان يخفى حياياه واكاذيبه !

وتذكر « نيكلودوف » فجأة - عندما بلغ باب قصر (آربات) - أنه وعد آل « كارمالين » بتناول العشاء على مائدتهم ، فقال لنفسه : « كلا ، لن أذهب ! »

.. فلقد شعر بشيء من التنافر وعدم الانسجام بين حالته النفسية وحال آل « كارمالين » ، مما جعله يدرك - فجأة - ان من المستحيل عليه أن يجلس بينهم ، ويتكلم معهم ويستمتع اليهم ...

وعاد يقول لنفسه : « لن اذهب ! » .. وتحول راجعا الى منزله . وما أن دلف الى حجرة المائدة - المزدانة بالمدفأة الكبيرة ، والتي ضمت (بوفيه) فاخرا من خشب البلوط ذى النقوش المحفورة - واختلس نظرة الى حجرة الاستقبال ، بجدرانها المكسوة وستائرهما ، و (البيانو) الكبير - القابع فيها - واللوحات التى تزين جوانبها ، حتى انتابه استحياء لا يوصف ، وقال يحدث نفسه :

« يجب أن أغير كل شيء ، وفى أقرب وقت ممكن .. ان المجتمع ليس الا خدعة وستارا يخفى من ورائه الفراغ والرديلة والانانية .. اكذوبة ، اكذوبة ، اكذوبة .. لكم يملأنى هذا بالغم ! .. كفانى ! لقد سئمت ! »

● وجد « نيكودوف » على منضدة صغيرة - خلف ستار - ورقة مكتوبة بخط « آلين كارمالين » باللغة الروسية ، وان تخللتها بعض فقرات باللغة الفرنسية :

« كلفتنى والدتى أن اطلب اليك ألا تفكر فى تناول العشاء فى أى مكان ، عقب خروجك من المحكمة .. واذا كنت مشغولا فى الساعة السادسة ، فسيبتظرك العشاء حتى منتصف الليل ، اذا دعا الأمر . وتقول أُمى ان هذا أقل ما يمكن أن يفعله المواطنون الصالحون ، نحو أولئك الذين يسهرون على العدالة لمصلحة الجميع .. فاحضر فى أى وقت يروق لك - آ . ك . »

آه ، من هذه الفقرات المكتوبة باللغة الفرنسية ، وهذه الدعابات ، وهذا المزاح الخفيف الذى يصعب تمييز الجدد

فيه من السخرية ، فلا يدرى المرء أين يبدأ هذا ، ولا أين ينتهى ذاك ! ..

كان هذا يسره ، الى عهد قريب .. أما الآن ، فقد بدا له قبيحا ، بل ويدعو الى الاشمئزاز ، كما هى حال (الديكورات) المسرحية المعدة على عجل - وبدون دقة - عندما يراها المرء لا من قاعة المسرح ، بل من فوق المنصة ، أو من وراء الكواليس !

ولكنه قال فى نفسه : « يجدر بى أن اذهب ، بالرغم من كل شيء .. اذ يجب أن أضع حدا - بطريقة أو بأخرى - لهذه الأكذوبة . أننى أفضل أن أقطع الخيوط المشتبكة ، بدلا من أن أتركها تزداد اختلاطا بعضها ببعض ، وتجر معها خيوطا أخرى » !

وتوقع « نيكلودوف » - عندما تبين أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة - أن يجد آل « كارمالين » على مائدة العشاء .. فنظف ملابسه بالفرشاة ، وأخذ يصفف شعره الغزير أمام المرأة ، كما اعتاد أن يفعل .. وقال لنفسه ، وهو يتطلع الى وجهه - فى المرأة - بازدياد : « يا له من رأس تعس يثير التقزز .. ان لى بالتأكيد رأس جبان .. أننى جبان بدون شك ! »

● كان منزل آل كارمالين بعيدا جدا ، فى حى (بوكروثكا) . واذ هبط « نيكلودوف » الى الطريق ، استوقف حوذا . وما ان استقل العربة ، حتى بادر الى اصطناع حديث - ايا كان موضوعه - مع الحوذى ، ليهرب من افكاره القاتمة . وعرض الحوذى - الذى اعتاد الثرثرة مع راكبى عربته - حال عائلته البائسة ، فى بضع كلمات . كانت تتألف من تسعة افراد ، كلهم فى حاجة الى الطعام ولكنهم لا يملكون الا ما يكاد يسد رمقهم ، حتى عيد الميلاد على الأكثر . وكان عليهم

— فوق ذلك — أن يدفعوا ستة وعشرين « روبل » كضريبة ، وهو مبلغ ضخم لابد من تسديده بأكمله دفعة واحدة ، فكان لزاما على أغلب أفراد العائلة أن يذهبوا للبحث عن أعمال في مكان آخر . أما هو ، فلم ير سوى قيادة العربات في المدينة ، مما كان يكبده مجهودا ضخما ، ويضطره للعمل بلا توان ، وللتساهل حتى يستطيع أن يحصل بمشقة على النفقات اللازمة . . هذه الحالة — التي تدعو للرثاء — لم يكن لها سوى سبب واحد في رأيه ، هو : عدم كفاية الأراضى التى يحق للفلاح أن يزرعها ، فى الوقت الذى كانت توجد فيه أراض بدون زراعة ولا استثمار لدى كبار الملاك .



● كان آل « كارمالين » على وشك الانتهاء من العشاء ، عندما وصل « نيكلودوف » . وما أن دخل الى البهو ، حتى أخبره حارس الباب الوقور بأن سادته كانوا بعد جالسين الى المائدة ، وقال له : « تفضل بالدخول يا صاحب السمو ، فهم فى انتظارك » .

وفى حجرة المائدة ، وأمام (البوفيه) المكتظ بالأواني ، كان يجلس حول المائدة الكبيرة : « كارمالين » الشيخ ، وأخوه ، وعمه ، و « كولوزوف » — طبيب العائلة وأحد دعاة الحرية فى الماضى — ومس « رودج » Rodge ، وواربا Warla — الأخت الصغرى لآلين — وكاترين الكسندروفنا ، وهى صديقة للأسرة ، عانس فى الأربعين من عمرها تقريبا ، ومن أشد أنصار القومية حماسا ، وأكثرهم تطرفا . . وآخر آلين ، والطالب « بتيا » Petia . . الذى كان أهم شخص فى المنزل ، إذ بلغ من أهميته لديهم أن اضطرت الأسرة لصدم مبارحة المدينة ، نظرا لاقتراب موعد امتحاناته . أما « صوفى واسيليفنا كارمالين » — ربة الدار — فكانت متوعدة قليلا ، كمادتها ، فتناولت عشاءها فى مخدعها .

وقال الأب وهو يصافح نيكلودوف بحرارة : « لكم يسرنا أن نراك .. ما زلنا نتناول الشواء ، ففضل بالجلوس » .. واستطرد موجهاً أمره الى كبير الخدم : « افعل اللازم ، يا ستيفان ! »

قال الرجل في سرعة ، وهو يأخذ من (البوفيه) مغرفة كبيرة : « سنعد العشاء لصاحب السمو ، حالا ! » .. وأوماً برأسه تجاه أحد الخدم - وكان شاباً قويا ، ذا سالفين بديعين - فأسرع الخادم بوضع أدوات المائدة ، ومنشفة منشأة تحمل شعار العائلة - الذي كان يتمثل في تاج ودرع - بجوار المكان الذي جلست فيه « آلين » .

وقال الطبيب « كولوزوف » بدوره ، وهو يرمق القادم بعينين لا تمنان عما في نفسه : « تفضل بالجلوس ، وأخبرنا : هل العدالة - بمفهومها الحديث - لا تزال مستمرة في تقويض أسس الدولة ؟ »

واتخذ « نيكلودوف » مكانه ، دون أن يجيب عن سؤال هذا السياسي التحرري القديم .. كان كل نشاطه قد فتر ، وأحس بهبوط ، وبأن شيئاً ما راح يثقل عليه ويسحقه . ولكنسه غضب فجأة ، عندما وجهت اليه « كاترين الكسندروفنا » الحديث بالفرنسية ، على الرغم من آرائها القومية :

- يا لك من مسكين يا ديميتري ايثانوفتش ! .. انك متعب ولا شك !

فأجابها نيكلودوف بالروسية : « في غاية من التعب ! » فأردفت العانس : « وبعد ؟ .. هل أدين متهموك أم برئوا ؟ »

وأجاب نيكلودوف ، وقد قطب حاجبيه : « لا هذا ولا ذاك ! »

ثم استدار ناحية « آلين » ، التي ابتسمت له .. ولكن

تلك الابتسامة انحسرت فجأة ، كما ينحسر الظل ، اذ أدركت بالحاسة السادسة - التى تملكها المرأة ، والتى لا تخدعها أبدا - أن « نيكلودوف » قد تحرر من سلطانها عليه ، أو أنه كان وشيك التحرر ، على الأقل ! .. وتأكدت من ذلك ، عندما أبصرت علامات التوتر على وجهه ، وهو التوتر الذى كانت تناضل ضده بنجاح منذ زمن بعيد ، وطالما اغتبطت اذ بدا لها أنه وشيك الزوال تماما !

وقال لها نيكلودوف ، حين دعتة بلطف الى الطعام : « أرجو أن تعذرني ، فليست لدى اليوم رغبة فى الطعام ، ولن أستطيع أن أبتلع لقمة واحدة ! »

ومع ذلك ، نشر « نيكلودوف » منشفته ، واقترب بمقعده من المائدة . وبدا جو منزل آل « كارمالين » متغيرا فى ذلك اليوم . . فقد أخذ كل شيء يزيد فؤاد « نيكلودوف » اكتئابا : الأسئلة التافهة المبتذلة ، الموجهة من الأستاذ « كولوزوف » ، الذى كان يتظاهر بمناصرة الآراء المتحررة . . وتصرفات الشيخ « كارمالين » ، الذى راح يأكل بشرهة ، موجهها كل اهتمامه الى العشاء بشكل واضح . . ثم استعمال « كاترين الكسندروفنا » اللغة الفرنسية فى غير محلها ، وتعبيرات وجه الطبيب والمربية الانجليزية ، وهذه الأوانى الغضبية ، وتلك المصنوعة من بلور (بوهيميا) ، وأصناف الطعام المتقاة ، والمشروبات الفاخرة ، والخدم . . وكل هذا الاطار المترف ، الذى خيل اليه أنه يراه للمرة الأولى ، وان كانت حياته الخاصة وشعوره بجرائمه هما اللذان أثارا ضيقه فى الواقع !

ونفض « كارمالين » عن المائدة ، قائلا : « لست أريد أن أزعجكم ! » . . وغادر حجرة المائدة ، فتبعه الجميع ماعدا « آلين » و « كاترين الكسندروفنا » ، اذ بقيتا مع « نيكلودوف » . وكالعادة ، بوغت « نيكلودوف » بكثرة الطعام وأصنافه ، ولكنه فى هذه المرة - وقد جلس يأكل بمفرده ،

ووقف اثنان من الخدم رهن اشارته - شعر بضيق لا يطاق !
وبعد أن أكل الخضر ، وتناول فطيرة ، وأتى على صنف آخر
من الطعام ، كف عن الأكل ورفض بإصرار باقى أصناف
المساء .

وسأله كاترين الكسندروثنا : « ألم تر آخر لوحة
رسمتها آلين ؟ »
- اعتقد اننى لم أرها .
- فلنذهب لرؤيتها اذن !

وتوجه الثلاثة الى مرسوم « آلين » ، المكتظ بحوامل
الصور ، وباللوحات ، وبأشياء عديدة . . وأرته « آلين »
لوحتها الأخيرة : كانت تمثل وجه فتاة صغيرة ، ذات شعر
مرسل على كتفيها . فرمق « نيكادوف » اللوحة بنظرة فاترة .
. . كان كل شيء بالنسبة اليه - فى تلك اللحظة - فوق
الاحتمال . فقالت له « آلين » ، وهى تتأمله من طرف خفى ،
بتوجس : « أرى أن منصب المحلف يصيبك بفتور فظيع ! »
- نعم ، انك على حق . . ولكن هناك شيئاً آخر . . .
- ما هو ؟

- شيء غير عادى ، صادفنى هذا الصباح . واعترف أنه
قد حيرنى تماماً !
وتساءلت كاترين الكسندروثنا : « ما هو ؟ . . اسمع ،
أهو سر لا تستطيع أن تبوح لنا به ؟ »
- نعم ، لا أستطيع - فى اللحظة الراهنة - أن أقول أكثر
من ذلك .

فسأله « آلين » ، باشفاق وحنو نفذا مباشرة الى قلبه :
- أهو شيء غير سار بالنسبة لك ؟
- نعم . . ولا ! فهو - من ناحية - غير سار ، لأنه جعلنى
أراجع نفسى ، وأجبرنى على إعادة النظر فى أمور كثيرة . .

وهو - من ناحية أخرى - سار ، لأنه يفتح أمامى آفاقا
وامكانيات جديدة ، ويفرض على ضرورة تحسين أسلوب
حياتى .. وهذا أمر لم يكن ثمة غنى عنه اطلاقا .. معذرة ،
ولكننى لا أستطيع - فى اللحظة الراهنة - أن أقول لك أكثر
مما قلت !

قالت « كاترين الكسندروثنا » ، وهى مشغولة البال ،
تحاول أن تكتشف الأمر : « اذن ، فهو سر بكل تأكيد . وبما
اننى جامحة الفضول ، فسأعمل جاهدة على أن أستشف
الموضوع .. نبئنى ، هل حدث هذا الأمر فى المحكمة ؟ ..
وهل تراه لا يتعلق الا بك وحدك ؟ »

- معذرة ألف مرة يا كاترين الكسندروثنا .. لا أملك
أن أخبرك بشيء . بل اننى أفضل أن أنصرف !

وتدخلت آلين - فى الحديث - قائلة : « اننى أفهمك حقا ،
ولكن .. مهما يكن من الأمر ، فلا تنس شيئا .. لا تنس أن
كل ما يمسك ، يمس أصدقاءك فى نفس الوقت . هل فهمتنى
جيذا ؟ » . واذا أجابها : « نعم » ، عادت تسأله :

- هل ستأتى لرؤيتنا غدا ؟

- كلا . لا أظن ذلك . الى اللقاء ! .. وعلى كل حال ، فانى
أشكر لكما هذه المشاعر التى لا أستحقها !

وما ان رحل « نيكلودوف » ، حتى صاحت كاترين
الكسندروثنا : « ما الذى جرى له ؟ .. لا بد أن أعرف
الموضوع ، مهما يكبدنى ذلك ! .. اننى أوقن من أنه أمر يتعلق
بالكرامة ، فان عزيزنا « ميتيا » شديد الحساسية ! .. الأمر
المؤكد هو انه رجل غريب الأطوار ، وقد لمحت - منذ أمد
طويل - أنه يتأهب لأن يقلب صفحة جديدة فى حياته ..
غير أنه لا ينبغي ان يفعل ذلك بانقلاب جذرى ، كعهده فى كل
شيء .. ! »

الفصل السادس

قرار محتوم

● وفي هذه الأثناء ، كان « نيكلودوف » عائدا الى منزله مشيا على الأقدام ، دون أن يكف عن التفكير فيما ينبغي أن يفعله . . الأمر الوحيد الذى كان يوقن منه ، هو أنه سيئذل في القدر قصارى جهده ليتمكن من زيارة « كاتوشا » ، والأفصح لها عن كل ما فى قلبه ، دون أن يخفى عنها شيئا !

ونام « نيكلودوف » فى ساعة متأخرة ، فراوده حلم مزعج ، شاهد فيه « كاتوشا » تحاول جاهدة أن تمر خلال باب ، ولكن دون جدوى . . وعلى الرغم من رغبته فى مساعدتها ، فانه عجز عن ذلك ، اذ راحت تعوقه عصى نصبت فى طريقه . . ولم تكن تلك العصى سوى الأقوال التى سمعها من رئيس المحكمة !

ولم يستيقظ - فى الصباح - الا فى ساعة متأخرة ، نتيجة مجافاة النوم اياه طويلا فى الليلة السالفة . ومن ثم فانه لم يستطع الوصول الى المحكمة قبل الساعة العاشرة . وكان أول ما خطر له ، هو أن يسعى لمقابلة الرئيس . . ولكنه لم يجد وقتا لذلك ، اذ كانت هناك قضية أخرى على وشك أن تبدأ .

وفى قاعة المحلفين ، حياه الجميع تحية الأصدقاء ، وكانهم كانوا يعرفونه منذ زمن بعيد .

على أن حالته النفسية كانت - فى ذلك اليوم - مختلفة تماما عنها فى سابقه ! فان ما بدا له بالأمس تافها ، غير ذى قيمة تذكر - من أمورهم - تراءى له اليوم مضحكا ، بل سخيفا !

وافتحت الجلسة بقضية سرقة مع سبق الإصرار . فقد سرق خادم - لم يكن عمره يتعدى الثانية والعشرين - بعض

سجاجيد لا قيمة لها . كان قد تعطل عن العمل منذ مدة ، فسكر ذات ليلة ، ودخل المسكن الذى كان قد طرد منه ، واستولى على أول شىء وقع عليه بصره ، دون أن يعرف لذلك سببا . . وعندما فوجئ متلبسا بالجريمة ، اعترف فى الحال ! وتبين - بعد ذلك - أن السجاجيد المسروقة لم تكن ذات قيمة . أما الشاهدان - وكأن أحدهما شرطيا ، والآخر شخصا مغمورا - فلم يكلفا نفسيهما عناء اخفاء الضيق الذى سببته لهما قضية مملّة ، فاترة ، كأنها يوم من أيام الخريف !

واخذت ثورة ((نيكلودوف)) تزداد ، بمواصلة النظر فى القضية . اذ أن الاجراءات القانونية لم تبد له يوما عديمة الجدوى والأثر ، كما بدت له اذ ذاك . . وكان أكثر العوامل اثارة لحنقه ، هى تلك البساطة التى كانت حياة المرء تحال بها الى العوبة . وقد اضطر الى ان يبذل مجهودا ضخما ، ليبقى فى القاعة حتى نهاية القضية . فقد شعر أكثر من مرة ، برغبة فى الوقوف ، مدفوعا بقوة لا تقهر ، ليقول لجميع الحاضرين : « كفى مزاحا يا سادة !.. لماذا تهزأون هكذا بالام شخص غير مسئول ؟ انكم لتعلمون جيدا أن ذنب هذا الفتى البائس بسيط جدا ، وأن ظروفنا معروفة لنا جميعا ، هى التى دفعته الى ذلك . فضعوا حدا لهذه المهزلة ، واتركوه ينصرف بسلام !.. الا ارافوا به ! »

ولم يمنع « نيكلودوف » من الانسياق لهذا الاغراء ، سوى خوفه من أن يؤثر تصرفه هذا - تأثيرا سيئا - على وكيل النيابة ، فيمنعه من رؤية « كاتوشا » . لذلك سيطر على انفعاله ، وقرر أن يتشبث بالهدوء حتى آخر الجلسة . غير أن استمرارها وقتا أطول مما كان متوقعا ، حال دون أن يقابل « نيكلودوف » رئيس المحكمة ، حتى صباح اليوم التالى ، عندما سعى اليه فى مكتبه .

● استقبله رئيس المحكمة واقفا ، وهو يتأهب للخروج .
وسأله بلهجة جافة ، وقد بدت عليه بوضوح دلائل الامتعاض
من الحاح زائره في طلب مقابلته : « ماذا تريد يا سيدي ؟ »
فأجابه نيكلودوف : « اننى أدعى نيكلودوف ، عضو في
هيئة المحلفين في الجلسة المنعقدة في هذه اللحظة .. وقد
جئت أطلب اليك الاذن لى بزيارة السجينة « كاترين
ماسلوفا » ، التى حكم عليها - أمس الأول - بالسجن والنفى
الى سيبيريا » .

وكان يشعر بأن هذه المحاولة كفيفة بان تقرر مصير حياته
كلها ، فأحس بقلبه يهتز اضطرابا ، وتولاه انفعال شديد ،
أشاع الرعدة في جسده كله !

وأجابه الرئيس بخشونة : « وما الداعى لهذه الزيارة ؟ »
.. ثم أردف ، متلطفا : « ليس بوسعى أن أساعدك ، طالما
كنت أجهل بواعث هذا الطلب » .

فصاح « نيكلودوف » ، والحمرة تكسو وجهه :

- اذا كنت أقوم بهذه المحاولة لديك ، فما ذلك الا لان
هناك أسبابا قاهرة . فانا وحدى المذنب وراء مثل هذه المرأة
أمام محكمة الجنايات . لقد أغويتها ، وقدمتها - بهذه الفعلة -
الى الجريمة !

- ولكننى ما زلت لا افهم سر الحاحك بهذه الدرجة في طلب
رؤيتها .. ما هو السبب المباشر الذى يدفعك لذلك ؟
ألقى الرئيس بهذا السؤال وقد قطب جبينه ، وخالجه
شئ غير قليل من القلق . فقال نيكلودوف :

- السبب ؟ .. السبب اننى أريد أن أتزوج من « كاترين
ماسلوفا » !

ولم يكن « نيكلودوف » قد حسم أمره على الزواج من
« كاتوشا » ، الا خلال مناقشته مع رئيس المحكمة .. ولاذ
الرئيس بالصمت طويلا ، وهو ينقل بصره بين المنضدة التى

كان يقف الى جانبها ، وبين « نيكلودوف » . وما لبث أن قال :

— انك ، على قدر ما أتذكر ، السيد نيكلودوف الذى كان مشتركا — فى الماضى — فى الصليب الأحمر .. اذا لم أخطئ الحدس !

— عفوا يا سيدى الرئيس ، ولكنى لا أعتقد أن لهذه التفاصيل علاقة بالالتباس الذى تقدمت به .

— كلا ، طبعاً . ولكن .. لما كان طلبك يبدو لى غريباً جداً ، و .. من ناحية أخرى ...

— عفوا ، ولكن .. هل سيتسنى لى الحصول على اذن برؤيتها ؟

— اسمع .. هذا ليس فى نطاق سلطتى فى الوقت الحاضر ، فان السجينة — بمجرد ادانتها — تغدو تحت امرة السلطة المدنية . انها — فيما أعتقد — موجودة الآن فى قلعة (بوتيركى) .. وأرى أن تتجه الى هناك !

— تكرم ، مرة أخرى ، وأرشدنى .. الى من يجب أن أتوجه بطلبى ؟

وأجابه الرئيس بلهجة جافة ، وهو يشير — بحركة خفيفة — الى أن المقابلة قد انتهت : « الى المحافظ ، أو الى مدير السجن » . فأردف نيكلودوف : « أرى لزماً على — كذلك — أن أخطرك بأننى لن أستطيع الاشتراك فى الجلسات بعد الآن ! »

وصاح الرئيس ودهشته تتفاقم :
— ولكن ، لماذا ؟ .. اسمح لى بأن أقول لك ، ان عليك أن تقدم لذلك أسباباً تستحق أن تؤخذ فى الاعتبار .
— ان الأسباب التى تدفعنى لهذا ، هى : أننى أجد العدالة غير ذات جدوى .. بل انها لا تتمشى ومبادئ الأخلاق كذلك !
وابتسم الرئيس ، فى اهتمام نم عن أنه أدرك ما فى الأمر ،

وان هذا النوع من التصريحات كان مألوفاً لديه الى درجة لم يعد معها يدهش منه اطلاقاً .. ثم قال اخيراً : « اننى وقد أحطت علماً برفضك الحضور ، أرى لزماً على أن أقول لك - بوصفى رئيساً للمحكمة - اننى لا أستطيع قبول انسحابك رسمياً . لهذا أنصحك بأن توجه استقالتك الى سكرتيرية المحكمة . وبعد فحصها ، سيبلغك السكرتير ما اذا كانت جديرة بالقبول .. واذا رفضها ، فأنذرك بأنه سيقضى عليك بغرامة مالية كبيرة اذا تخلقت عن الحضور ! »

وصاح نيكلودوف مهتاجاً : « عفوا يا سيدى .. اننى اكتفى ببلاغك ، ولن اتقدم الى أية جهة أخرى ! » .. فقال الرئيس ، وقد بدا عليه أنه كان يتحرق رغبة في التخلص من هذا الزائر الغريب ، بأسرع فرصة : « لا بأس يا سيدى .. انت وشأنك ! »

وتسأل أحد المستشارين ، وهو يلج مكتب الرئيس : « من هذا السيد ؟ »

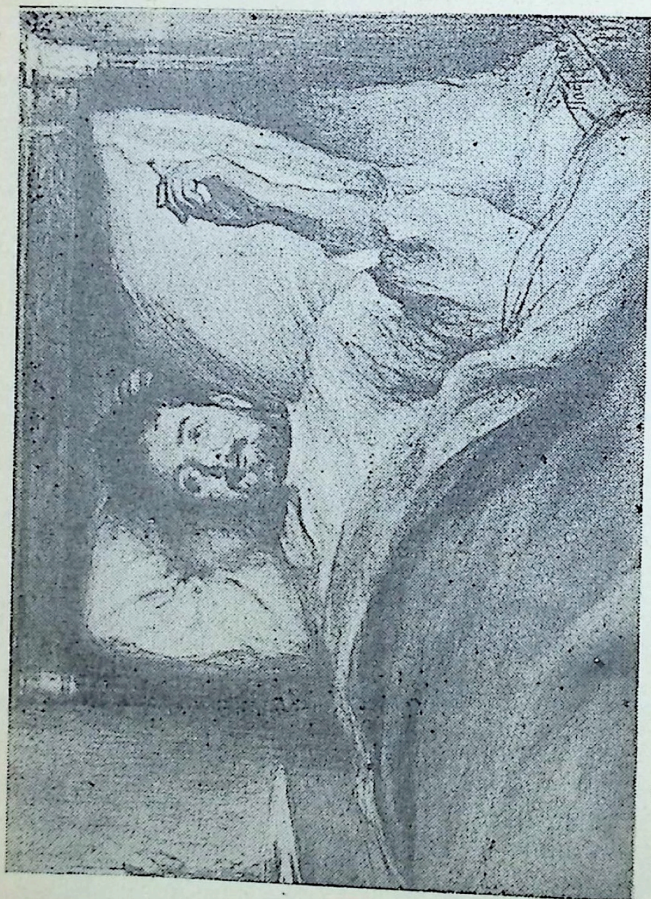
- انه « نيكلودوف » الذى لا بد أنك تعرفه ، لما كان له - فيما مضى - من نشاط فى الصليب الأحمر وفى بعض الجمعيات المناصرة للحرية .. مما اثار ضجة كبيرة ! .. تصور انه ، وهو عضو فى هيئة المحلفين ، قد عرف بين المتهمين امرأة قضى عليها بالنفى .. وكان ، باعترافه ، قد أغواها فى الماضى - ولا أعرف أين ، ولا كيف ؟ - فاذا به ، وقد شعر بالندم ، يريد أن يتزوجها الآن !

- هذا غير ممكن !

- لقد قال لى ذلك بنفسه .. والحق انه كان فريسة لانفعال غير طبيعى ، عندما أعلن لى قراره !

- كل شبابنا الآن ، على هذا المنوال .

قال الرئيس وهو يفادر المكتب ، وفى أثره المستشار : « ولكنه لم يعد صغير السن ! »



« .. يومين قضاهما » نيكلودوف « في البيت مستلقيا في فراشه يفكر ، ويفكر دون توقف .. »

● توجه « نيكلودوف » - بعد أن غادر رئيس المحكمة مباشرة - الى المحافظ ، فلم يجده في مكتبه ، فضلا عن أنه لم يكن يستقبل أحدا من زائريه قبل الساعة الثانية من بعد الظهر .. وبأصرار شديد ، اعتاد أن يتولاه عندما يرغب في الوصول حقا الى غاية معينة ، اتجه الى مكتب نائب المحافظ ، دون أن يضيع وقتا . بيد أنه لم يوفق الى مقابلته هو الآخر . وأشير عليه بأن يسعى الى رئيس الشرطة القضائية .. غير أن رئيس الشرطة القضائية صارحه بأنه لم يكن يملك أن يفعل شيئا على الاطلاق ، دون أمر خاص من محافظ (موسكو) . وكان من المؤكد أن يحول « نيكلودوف » - أكثر من مرة - من مكتب الى آخر ، لو لم يحزم أمره على التوجه ثانية الى المحافظ ، وأن يصر على لقائه دون ابطاء . ووفق في هذه المرة .. وما ان دخل مكتب المحافظ ، حتى صاح وقد انتابته نوبة عاتية من السخط والغضب : « يا سيدي المحافظ ، أما أن لهم أن يخبروني : الى من أتوجه ، وماذا ينبغى أن أفعل ؟ ! »

وانطلق يعرض قضيته بجرارة وثورة اخذا يزيدان من قلق المحافظ باطراد : « .. ولست أحسبني مخطئا اذا قلت اننى لا اطلب منكم جميلا خاصا .. بل ما كنت لاطلب شيئا ، لو لم اكن في حاجة ماسية .. اننى لا أرجو - في هذه اللحظة - سوى أن تمكنني من رؤية هذه المرأة البائسة ، التي تعذبونها دون أن يكون لها يد في شيء ! »

وبلغ انفعاله ذروته ، حتى أنه لم يعد يشعر بالكلمات التي راحت تنطلق من بين شفثيه ، وهو يرفع صوته : « اننى اناشدك الاذن لى باصلاح الضرر الذي الحقتموه بها .. وفي أسوأ الحالات ، أطلبكم بأن تضعوني في السجن الذي سجنتم فيه تلك المسكينة .. حتى أستطيع أن أراها وأتحدث اليها ! »

قال الحاكم يلفت نظره : « عفوا يا سيدى ، أرجو أن تكون أكثر مراعاة للأصول ، وألا تصيح هكذا ، والا ... »
 - ماذا اذن ؟ ما معنى « والا » ؟ ... أتريد أن ترهبنى ؟
 لعلك تريد أن تخرجنى من هنا بالقوة ؟ .. لكن ما دمننا هنا ،
 فأننى أبيع لنفسى أن أقول لك : لست أنا الذى يتقاضى مرتبا لخدمك ، بل العكس تماما .. أنت الذى يجلس هنا لهذا الغرض . فلست أتعدى حقوقى ، عندما أطالبك بتنفيذ واجبك !

ثم توقف لحظة ، ليضيف بلهجة أقل حدة : « وعلى أية حال ، اذا كنت قد مسست مشاعرك ، فأننى ألتمس العذرة .. اذ أن هذه الأساليب البيروقراطية الغريبة تجعلنى مجنونا ، كما تعلم ! »

- الهدوء يا سيدى ! .. الهدوء !
 وتظاهر الحاكم - فى البداية - بالاستياء ، ثم اتخذ مظهرا غاية فى الهدوء ، بل والتواضع .. وأخيرا ، عهد الى أحد أتباعه باتخاذ ما ينبغى - وفى أقصر وقت - لارضاء صاحب الطلب .

واستغرقت هذه المساعى يومين ، قضاهما « نيكلودوف »
 - فيما عدا الساعات المخصصة للمشى المضنى فى المدينة - فى البيت مستلقيا تارة على الأريكة ، وتارة أخرى رائحا غالديا فى المسكن ، أو واقفا بجوار النافذة مستغرقا فى أحلامه ..
 كان يفكر ، ويفكر دون توقف :

« نعم ، سوف أتزوج ، أو - بعبارة أخرى - سوف أفعل ما كنت أريد أن أفعله قبل أربعة عشر عاما .. مع فارق واحد ، هو أننى سأذهب مع زوجتى الى سيبيريا ، بدلا من أن نذهب الى القوقاز لأزرع أراضى كما كنت أريد أن أفعل فى الماضى .. سأذهب الى سيبيريا لأفلاح أرضا أشتغل فيها كعامل أجير .. وإذا كنت - فى الماضى - قد استطعت أن

أقاوم ، على أمل أن أجد زوجة أفضل من « كاتوشا »
 - بالرغم من أنه من الصبر الشور على مخلوقة أكثر جاذبية
 وظهر مما كانت هى عليه - فان الأمر الآن يختلف تماما ..
 فليس لى الآن خيار ، ولست أملك أن أترك « كاتوشا »
 .. سوف أصلح غلطتى ، وأكرس نفسى - قلبا وجسدا -
 لزوجتى .. ولها وحدها ! .. وبما أننى لا أملك أيضا أن
 أختار مكان اقامتنا ، فسوف أسافر معها الى سيبيريا ،
 وسيكون - فى هذا - الخير كله ! »

الفصل السابع

فى السجن

● وأخيرا ، تمكن « نيكلودوف » من الدخول الى سجن
 (بوتيركى) Boutirky

كان ذلك فى صباح يوم مشمس - من أيام الأحد - تالق
 فيه الربيع بكل بهجة نضارته ، وشاع الدفء فى جوه ،
 وتفتحت فيه براعم أشجار الكرز والصفصاف والهور ، وعبق
 هواؤه بشذى الزهور .

وكانت نوافذ المتاجر والمساكن مفتوحة على مصاريعها ،
 وقد أخذ بعض الناس ينظفون زجاجها بهمة ونشاط . وكان
 الوقت مبكرا . ولكن .. بينما كان الجانب الأيسر من
 الطريق يستلقى وادعا - فى ظل مشبع ببرودة الصباح -
 أخذ الفبار يتراكم على الطريق ، من جراء العربات والمركبات
 التى كانت تجتازه فى جلبه وضوضاء !

وأخذ الجو يمتلىء بالصيحات والنداءات المزعجة ، التى
 كانت تصدر عن باعة اللبن وغيرهم من الباعة الوافدين من
 الريف فى أعداد كثيرة .. وازدحمت الميادين - التى تنثر على

أرضها روث الحيوان والتبن والقش - بمركبات للنقل مختلفة الأشكال والأحجام .

ومن بين الأسواق التى اجتازها « نيكلودوف » بمركبته ، سوق (سمولينسك) Smoliensk . . وكانت زاخرة بالناس ، الذين راحوا يطوفون بالتاجر والخيام المضروبة ، كما كانت تعج بجلبتهم التى تصم الآذان . . وكان بين الباعة المتجولين تجار يبيعون الأحذية الطويلة ، وآخرون يحملون على ظهورهم ثيابا منسقة بعناية ، يعرضونها للبيع .

وبالقرب من مشارب الجعة ، احتشد عمال تحرروا من السخرة الأسبوعية ، التى كانت تتمثل لديهم فى أيام العمل الستة : رجال فى سترات لامعة ، ونساء فى أثواب صارخة الألوان ، مطرزة بالخرز ، وقد أحطن رؤوسهن بمناديل من الحرير المزركش .

وكان رجال الشرطة يقفون فى مراكزهم فى مظهر جاد . وأخذ قوم - ممن يحبون الخروج فى نزعات مبكرة - يتجولون فى الشوارع والطرق ، على حين جلست بعض الخادومات هنا وهناك ، فى صحبة الأطفال . ومن وقت لآخر ، كانت إحدى مركبات السادة تمر بسرعة كالزوبعة .

وصادف « نيكلودوف » - فى شارع (دولجوروكوف) Doljoroukoff - جنازة يتقدمها القساوسة والشمامسة بأرديتهم المذهبة ، وحاملو المشاعل . . وكانت تجر عربة الموتى الفاخرة عدة أزواج من خيول غطيت رؤوسها وظهورها بأغطية سوداء ، تتبعها قافلة من العربات السوداء ، بدت فى العربتين الأوليين منها وجوه مكتئبة ، ذات عيون حمرة لفرط البكاء . . ووجوه - فى المركبات الأخرى - غير مكتئبة ، تكاد تكون فرحة ، لاسيما فى المركبات الأخيرة .

وأخيرا ، رأى « نيكلودوف » أبراج السجن المديبة ، تظهر

الى يساره .. وبعد لحظة ، لمح السور الحديدى للحديقة الزاخرة بأشجار « الأكاسيا » المزدهرة .

وكان الحوذى يعرف المدخل المخصص للزوار معرفة تامة ، فلم يقف عند باب السجن الخاص بالعربات ، بل مضى الى ممر ضيق فى الحديقة ، أفضى الى باب جانبى . وهناك وجد « نيكلودوف » حشدا من الرجال والنساء ، حمل أغلبهم لفافات فى أيديهم ، وقد تجمعوا على مسافة مائة متر من السجن .. كلها كان ثمة آخرون يروحون ويجيئون ، فى مكان مربع مطلق الجوانب ، ارتفع الى يساره مبنى من الخشب أيضا ، ذو طابقين ، تنم اللوحة التى علت واجهته عن أنه من ملحقات السجن .

وفى نهاية الفناء ، ارتفع مبنى من الحجر كئيب المظهر ، ذو باب عريض .. وأمام هذا المبنى - الذى لم يكن قد دخله بعد أحد من الزائرين - أخذ « ديدبان » يسير بخطى منتظمة ، جيئة وذهابا ، وهو يحمل بندقية مشهرة « السونكى » .. بينما جلس - الى يمين هذا المدخل - حارس آخر ، بدا أن مهمته هى حفظ النظام بين الزائرين .. فكان عليهم أن يسعوا اليه أولا ، وبعد الاجراءات المعتادة ، كان يكتب أسماءهم ، وأسماء المسجونين الذين يبغون رؤيتهم ، فى ورقة خاصة .

ومن ثم تقدم « نيكلودوف » الى هذا الحارس ، وذكر له اسم « كاترين ماسلوفا » ، ثم استفهم منه قائلا : « لماذا لم يسمح لأحد بالدخول حتى الآن ؟ » فأجابه الحارس : « ذلك لأن القداس الأول لم ينته بعد .. بمجرد انتهائه ، ستفتح الأبواب » .

ثم صاح الحارس - فجأة - موجها الحديث الى رجل رث الثياب ، انسل من الجمع : « وأنت يا سيد .. الى أين تذهب ! »

ورجع الرجل الى مكانه ، دون أن ينبس بكلمة واحدة .
وكان بين الذين احتشدوا أمام السجن ، أناس أوحى
مظهرهم بأن بعضهم من صفار الطبقة الوسطى ، وبعضهم من
التجار ، وقد اصطحبوا زوجاتهم .. على أنهم - بوجه عام -
بدوا غير مكثرئين بشيء !

وحضر أحد الطلبة العسكريين ، فى زى رسمى ، مصطحبا
فتاة - فى عريشة خاصة - وقد حمل لفافة كبيرة فى يده .
وما إن غادرا المركبة ، حتى اقتربا من الحارس ، وسالاه أين
وكيف يستطيعان أن يقدما الى نزلاء السجن خبزا أبيض
وفطائر أحضراها معهما . وعلم « نيكلودوف » - فيما بعد -
أنهما كانا خطيبين ، حرصا على الترفيه عن البؤساء ببعض
الحلوى ، فى اليوم السابق على زواجهما !

واراد « نيكلودوف » أن يشعل سيجارة ، فطلب ثقابا من
أحد الواقفين بجواره ، وكان رجلا يرتدى ملابس جد
متواضعة . وأخذ يجاذبه الحديث .. كان الرجل خادما فى
أحد المكاتب ، وقد حضر لزيارة أخ له ، أدين فى قضية نصب .
وأخذ الرجل - الذى كانت تبدو على وجهه سمات الطيبة -
يروى قصته طواعية .. وقبل أن يصل الى نهايتها ، فتحت
البوابة الضخمة على مصراعيها ، لتمر خلالها ثلة من الأطفال
.. أولئك كانوا أبناء المسجونين - الذين قضى عليهم بالنفى
الى (سيبيريا) - وقد ارتدوا ملابس غاية فى النظافة ، وغطى
الأولاد منهم رؤوسهم بقلنسوات صغيرة ، بينما أحاطت
البنات رؤوسهن بمناديل .

وسار الأطفال فى صف منتظم - تحت اشراف بعض
النسوة - الى مبنى كان يقوم الى اليسار ، وقد أنشأه بعض
اهل الخير خصيصا لأبناء المسجونين .. وما إن دخلوا المبنى ،
حتى أعلن الحارس الزائرين بأن لهم أن يدخلوا .. وتمحى

((الديدبان)) عن الباب ، فاندفع الناس في عجلة ، وكانهم كانوا يخشون ألا يبالغوا غايتهم .

وصاح الحارس فيهم : ((أين أنتم حتى تركضوا هكذا ؟
.. لديكم متسع من الوقت ، فلا تتعجلوا !))

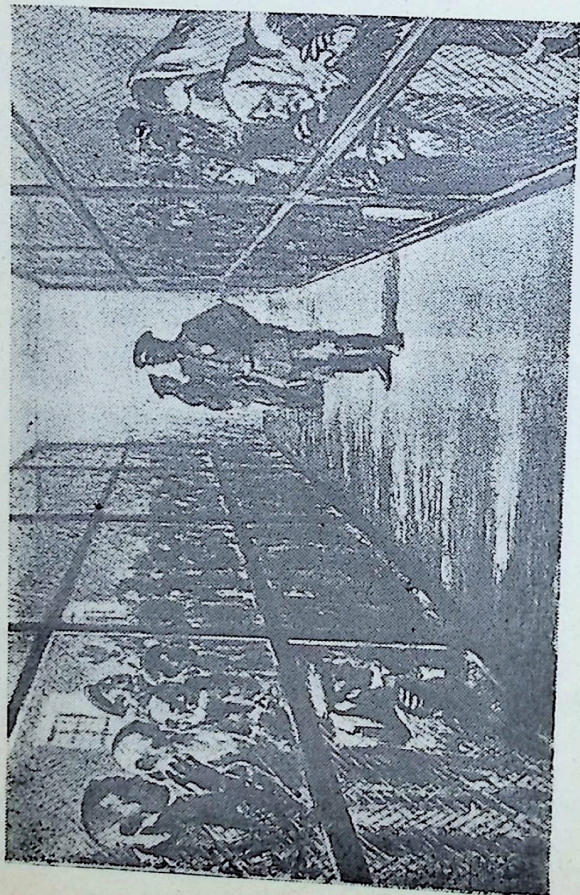
ووقف « نيكلودوف » عند الباب الداخلى للسجن ، الذى فتح بحيث يسمح بدخول الزائرين فرادى - واحدا بعد آخر - تحت رقابة أحد العسكريين . وما لبث « نيكلودوف » أن اجتاز الباب ، فى أعقاب الرجل الذى تعرف اليه قبل قليل . ومس الموظف - الذى كان يحصى الزائرين جميعا ، فى انشغال واستغراق - كتف « نيكلودوف » بيد قوية ، وقال : « السابع عشر ! »

● كان هذا الباب يؤدي الى باب آخر ، وقف وراءه جندي وصف ضابط ، راحا - بدورهما - يحصيان الزائرين .. فقد كان لزاما أن يتطابق عدد الداخلين مع عدد الخارجين ، تفاديا لبقاء شخص مشاكس فى الداخل ، أو هروب سجين متسللا بين الزائرين !

وافضى هذا الباب الأخير الى ردهة طويلة تعلوها قبة ، رأى « نيكلودوف » - فى قبو تحتها - تمثالا كبيرا للسيد المسيح مصلوبا .. وتأمل التمثال فى دهشة بالغة ، وقد جال بخاطره أن هذا الرمز قد أقيم فى أنسب مكان له .. فى المكان الذى فيه كثير من التعساء !

وتحول « نيكلودوف » يتابع سيره وراء الآخرين ، وهو يرتجف لفرط الانفعال ، وقد راح خياله يسبقه الى تصور ما يرتقبه .

ولم يفتن - فى غمرة اضطرابه - الى سؤال وجهه اليه أحد الحراس : « هل السجين الذى جئت لزيارته رجل أو امرأة ؟ » .. بل سار مقتفيا حشد الزائرين دون وعى ، حتى



.. كان ثمة سياجان من القضاة ، يفصل بينهما حوالى ذراعين ونصف
الذراع .. وفي هذا الممر الفاصل ، أثبت جنود كانوا يتحركون جيئة وذهابا ..

ولج وراءهم قاعة كبيرة ، شطرت الى نصفين بقضبان حديدية امتدت من السقف الى الأرض .

كان ثمة سياجان من القضبان ، يفصل بينهما حوالى ذراعين ونصف الذراع . . وفي هذا الممر الفاصل ، انبث جنود كانوا يتحركون جيئة وذهابا . . وتجمع المسجونون وراء أحد السياجين ، بينما وقف الزائرون وراء الآخر . . والتصق كل فريق بالحاجز - الذى فى ناحيته - وراحوا يملأون الجو لقطا وغوغاء بأصواتهم .

وأخذ بعض الأشخاص يجرون من جانب الى آخر ، باحثين فى قلق عمن جاءوا لزيارتهم ، فاذا ما اهدتوا اليهم ، التصقوا بالقضبان - بدورهم - فى مواجهتهم . . وكان من الطبيعي أن يحرص كل امرئ على أن يطفى صوته على صوت جاره ، حتى يسمع محدثه كلامه . . بيد أن النتيجة الوحيدة لهذا ، كانت استحالة أن يستبين المرء أى شئ مما يقال ، اذ اختلطت الأصوات ، وتحول الكلام الى صياح يصم الأذان ! ومضت لحظات قبل أن يتبين « نيكولودوف » أنه أخطأ الاتجاه ، فسأل رجلا كان يقف وراء الجمع ، وبدا أنه كان رئيس الحراس :

- هل لك ان تخبرنى : اين يوجد المبنى المخصص للسيدات ؟
- آه ! . . ليس هنا سجن النساء . . أنتشد قسم السيدات ؟

- طبعاً ، ما دمت أسأل عنه .
- كأن عاينك أن توضح هذا من قبل . . أما الآن ، فقد تأخرت كثيراً . . مستحيل !
ولكن نيكولودوف الح عليه ، قائلاً : « ما العمل ؟ . . أهو مستحيل حقاً ؟ »

فهز الرجل رأسه قائلاً : « طبعاً ، ما دمت أقول لك انه

مستحيل • كل الأبواب مفاقة ، فكيف تريدنى أن أفعل شيئا لمساعدتك ؟

— ألا تستطيع حقا أن تفعل شيئا ؟

اللقى « نيكلودوف » بهذا السؤال ، بالرغم من أنه أحس — فى قرارة نفسه — بارتياح لارجاء رؤية « كاتوشا » ، فقال الحارس :

— لن تستطيع شيئا يا سيدى • لا شيء على الإطلاق ، فان الأبواب جميعا ستغلق فى تمام الساعة الثامنة عشرة ، ولن يبقى هنا أى شخص !

على أن الحارس عنى — فى تلك الأثناء — بتفحص الزائر بامعان ، مسائل نفسه إن كان جديرا بأن يتجشم لأجله أى عناء !.. فلما تبين جدارته قال : « أرى أن أخالف التعليمات مرة ، اكراما لك ! »

ثم صاح مناديا أحد معاونيه ، باسم « سيدوروف » ، فأقبل شاب قوى البنية ، مليح الشكل ، بادره الحارس قائلا : « أرجو أن تصحب هذا السيد — يا سيدوروف — الى قاعة استقبال الزائرين ، فى قسم النساء ! »

وشكر « نيكلودوف » الحارس ، ثم تبع « سيدوروف » ، الذى فتح بابا ضخما ، أفضى بهما الى الردهة التى كان « نيكلودوف » قد شاهد فيها تمثال السيد المسيح • وصعد الاثنان درجا ، ثم توقفا على عرصة ضيقة ، ونظرا خلال باب حديدى ثقيل ، الى قاعة شطرها حاجزان من القضبان الحديدية ، على نسق قاعة الاستقبال فى سجن الرجال • كان كل شيء فى القاعتين متماثلا تماما ، مع فارق واحد : هو أن الحراس استبدلوا بحارسات ارتدين زيا ذا أزرار معدنية لامعة • وكان عدد السجينات أقل كثيرا من عدد الرجال المسجونين ، فلم يتجاوزن اثنتى عشرة سجينة !

وكانت هناك سجيننة عجوز تتحدث ، من وراء القضبان ، مع شاب بدا من المرجح انه ابنها . وانهمكت امرأة من الفجر في حديث مع غجرية أخرى - جاءت تزورها - معززة حديثها بحركات من يديها . . وأخذت فتاة مكتنزة ، بيضاء الوجه ، ممتلئة الخدين ، تتبادل الحديث مع امرأة شرسة الشكل ، مفرطة النحول ، وقد ارتدت أجمل ما تملك من ثياب ، وحملت بين ذراعيها طفلا رضيعا . . وكان يبدو أنها والفتاة من أهل الريف . .

كذلك كانت هناك امرأتان أو ثلاث أخريات . . ثم هذه « هي » . . أخيرا !

● ام ياهجهها « نيكلودوف » - في البداية - اذ كانت متوارية جانبا ، خلف السجينات الأخريات ، اللائى التصقن بالقضبان . وسأله الحارس الذى رافقه : « عن تبحث يا سيدى ؟ » فأجاب بعناء ، وكان شفتيه كانتا تابيان النطق بالاسم : « كاترين ماسلوقا » .

واذ ذاك ، صاح الحارس مناديا : « كاترين ماسلوقا ! . . هناك شخص يطلبك » ، أسرع بالحضور !

ثم تحول يثرثر مع الحارسات . . اذ ذاك فقط ، وقع بصر « نيكلودوف » على « كاتوشا » ، اذ ابتعدت عن النافذة التى كانت تقف بجوارها . .

وتقدمت نحو القضبان ، فوقفت بجانب الغجرية ، في الوقت الذى تحول فيه « نيكلودوف » - هو الآخر - عن مكانه بسرعة ، ليقف في مواجهتها . ولم يمنعه الحاجزان الحديديان - اللذان كانا يفصلان بينهما - عن أن يلحظ بوضوح امارات الفضول الشديد التى ارتسمت على وجهها ، وأطلت من عينيها .

وصاح نيكلودوف : « كاتوشا !.. هذا انا يا كاتوشا » ..
ثم سكت ، دون أن يتمكن من اتمام جملته ، وهو يرتجف ،
ويبذل جهدا كبيرا ليسيطر على انفعاله .
قالت كاتوشا مبتسمة : « ولكن من أنت ؟ .. لست
أعرفك ! »

وأخذت تتأمل طويلا ، دون أن تتمكن من معرفته ..
ومع ذلك فقد كانت بادية السرور ، اذ اقبل لزيارتها مثل
هذا الرجل ذى المظهر الأنيق والملابس الفاخرة .
- اننى « نيكلودوف » !.. ديميتري ايغانوڤتش نيكلودوف
.. انظرى الى جيدا يا كاتوشا !

ودون أن ينتظر الاجابة ، قال فى نفسه : « أجل ، اننى
اسلك الطريق السليم دون شك .. اننى أعمل ما يمليه على
واجبى ، وقد جئت لأعترف لها بذنبى ! » .. وقفزت الدموع
الى عينيه - لهذه الفكرة - وشعر بغصة فى حلقه ، فتشبث
بالقضبان ، وأجهش بالبكاء .

وعندئذ أشرق وجه « كاتوشا » - المضنى ، الشديد
النحول - فجأة ، اذ أومضت بذهنها بارقة ذكرى أثارت
اضطرابها ، فأمعت عينها وتضرج وجهها بحمرة .. لكنها لم
تكن تلك الحورية المشرقة ، القانية ، التى كانت فيما مضى تلهب
خديها الجميلين ، الشبيهين بخدى الطفل .. وانما حورية
شاحبة ، خفت قليلا من صفرة وجهها الذابل ، وانتشرت
فيه . وازدادت « كاتوشا » التصاقا بالقضبان ، وتشبثت بها
هى الأخرى ..

وتجلت لها الحقيقة واضحة !

على أنها لم تكد تتعرف على الرجل الواقف أمامها ، حتى
تجهمت ، وابتعدت عن القضبان ، بينما راح « نيكلودوف »
يصيح :

— كاتوشا! .. تكلمى يا كاتوشا! .. انك عرفتنى ، أليس كذلك ؟

— نعم! .. وماذا بعد ذلك ؟ .. ماذا بعد ذلك ؟ .. اتركنى وشأنى يا ديميتري ايڤانوفيتش ! وانصرف !

ولكنه لم يتمكن من سماع ما قالت ، اذ كانت الفجرية — الواقعة بجوارها — ترفع صوتها باطراد . وكان لزاما على المرء أن يصيح حتى يبح صوته ، لكى يسمعه الآخر .

قال « نيكلودوف » فى نفسه : « يا الهى ! .. كيف أقوى على أن أقول لها ما أريد ، بصوت مرتفع ؟ » . ولكن فكرة أخرى داهمته فجأة ، فقال يحدث نفسه : « عليك اليوم أن تعترف بننبك جهارا ، ما دمت لم تخجل من ارتكابه فى الماضى ! »

ودون أى تردد ، وتلبية لصوت ضميره ، أخذ يقول بصوت مرتفع : « كاتوشا ! .. لقد أتيت الى هنا لأطلب منك الصفح . اغفرى لى يا كاتوشا ! اصفحى عنى ! .. اننى مجرم ! .. مجرم الى درجة لا اظننى قادرا معها على اصلاح خطاى .. ولكننى اتوسل اليك أن تصفحى عنى رغم كل شيء ! »

وأخذت العبرات تخنقه من جديد .. حتى اذا عجز عن النطق بأية كلمة ، سكث تماما ، وقد تقلص وجهه .. وصاحت « كاتوشا » من ناحيتها : « لست أسمع ما تقول ! »

● ولكن « نيكلودوف » كان فى حال من التأثر والانفعال ، عجز معها عن السيطرة على مشاعره ، فابتعد عن القضبان محاولا أن يستعيد بعض هدوئه .. واذا ذاك ، تقدم اليه الحارس — الذى كان قد قاده الى سجن النساء — وقد بدا واضحا أن مسلكه اثار اهتمامه .. واذا وجده يقف منكس

الرأس ، بعيدا عن القضبان ، سألته عن سر عدم تبادلته الحديث مع المرأة التى حضر لرؤيتها ؟

— ذلك لأنه من المستحيل أن أقول لها ما أريد ، من خلال القضبان .. اننى مضطر الى أن أفسر لها أمورا كثيرة ، ولكنها لا تسمع شيئا ، بسبب الضوضاء !

وأخذ الحارس الى التفكير لحظات ثم قال :

— ما دمت فى حاجة ملحة للتحدث معها ، فمن الممكن أن نأتى بها الى هنا ، ولكن .. لفترة قصيرة !

واستدار الحارس نحو احدى الحارسات ، قائلا :

— هل لك يا « نازاروفا » أن تحضرى السجينة « ماسلوفا » الى هنا ؟

ثم قال محدثا نيكلودوف ، وهو يتسم ابتسامة الشريك فى جريمة : « هذا أدعى لراحتك ! »

وجاءت « كاتوشا » — بعد دقيقة — لمقابلته ، منتعلة الحذاء الطويل الخاص بالمسجونات ، ومرتدية المعطف الذى رآها فيه فى قاعة المحكمة . وكانت محتفظة برشاقة خطواتها . وعندما اقتربت من « نيكلودوف » — وهى منكسة الرأس — وضعت يدها فى يده .

وقال لها بعد سكون اليم : « لقد جئت يا كاتوشا أناشدك الصفح ، اذا كان هذا فى امكانك .. اعنى اذا لم أكن أثير اشمئزازك ! »

— اذن ، فقد جئت لتسال عن اخبارى ؟

أقلت : « كاتوشا » هذا السؤال ، وكأنها لم تفهم ما قال .. ثم أردفت : « ها انتذا ترى أين أنا الآن ! » .. وما لبثت أن أضافت ، وهى تبتسم بلا مبالاة : « أما كنت تتوقع هذا ؟ » وانطلق « نيكلودوف » قائلا بحرارة : « ولكن يا كاتوشا

.. ألم تسمعى ما قلت ؟ .. اننى اقول : اغفرى لى ..
واسألك : هل تقبلين الزواج منى ؟ »

ورفعت رأسها نحوه ، ورمقته بنظرة امتزج فيها الفضول بالقلق .. ولملت عينها برهة وجيزة ، ثم صاحت : « لماذا تنطق بهذه الحماقات ؟ .. ألا تستطيع حقاً أن تجد زوجة غيرى ؟ .. لا تزح ! اذا كنت راغباً فى أن تؤدى خدمة لى ، فاعطنى بعض النقود ، اذ لم يعد لدى شأى ولا تبغ ، ولست أطيق البقاء دون ترضخين . اعطنى نقوداً ، اذا شئت ، وسيكون هذا كرمًا منك ! »

وأخذ يحملق فيها جزعاً ، وهو صامت .. فعادت تقول :
— من المستحيل تماماً أن يكتسب المرء درهماً هنا ، كما ترى .. فالحراس أوغاد ، يسعون الى كل ما لديك ، دون أن يدفعوا شيئاً . لعلك الآن تفهم !

— اغفرى لى يا « كاتوشا » ، فأنا اشعر الآن بمدى جرمى ! فصاحت ، وقد تضرع وجهها ، وغضت بصرها : « عجباً ! .. ما الذى يدعوك الى طلب مغفرتى بهستمرار ؟ .. ليس لأحد ذنب فى شيء ! .. ألا فاتعمام انه قدرى ! .. هكذا قدر لى ، ولست أتهم أحداً ! .. انه أمر لا يستحق الحديث عنه ! »

وعلى الرغم من كل ما كان بوسعه أن يقوله لها ، فقد ظلت ترمقه من طرف عينها فى صمت . فقال فى نفسه : « ما هذا الا لأنها لا تستطيع أن تغفر لى ! .. من الواضح أن كلامى لن يصلح حياتها التى فسدت ، وهى توقن من هذا ، ولكنها لا تريد أن تقول له فى وجهى ... »

ولكنها — فى الواقع — لم تكن تفكر فى ماضيها .. كان حاضرها وحده هو الذى يشغلها ! لقد تملكها دهشة بالغة منذ راته . هذا كل ما فى الأمر . فما كانت تتذكر من حبها

القديم سوى صورة مبهمه ، شىء ضائع فى الماضى ، وكأنما الأمر يتعلق بامرأة أخرى ، ولا شأن له بها البتة .. فهو لا يؤثر فيها بشىء !

وأومضت بارقة أضاءت ذكرى الماضى فى وعيها ، ولكنها سرعان ما اختفت كالبرق ، لتفسح المجال لأنفه الرغبات . لم تكن تبغى - فى تلك الآونة - سوى القهوة أو الشاي ، والسكر ، والنبيد أيضا ، اذا أمكن .. والتبغ قبل كل شىء ، فما كانت لتستغنى عنه !

أما عواطف « نيكلودوف » النبيلة ، وندمه ، ونيتته فى الزواج منها .. فما كان كل هذا ليستهويا أنفه استهواء .. بل كانت كلها أمورا عسيرة الفهم والاستيعاب !

بل انها لم تجشم نفسها عناء التغفل وراء معانى كلمته الغريبة ، الغامضة ، والتعرف على البواعث التى دفعت « نيكلودوف » الى التصرف على هذا النحو .. فراحت تنتظر - نافذة الصبر - أن يفرغ من حديثه ، حتى يتسنى لها أن تطلب منه نقودا ، فما كانت - اذ ذاك - تفكر فى شىء أكثر من النقود !

وراح يصف لها أشجانه وعذابه ، عندما عاد الى بيت عمته - بعد الحرب - فعلم أنها رحلت دون عودة ، وهى حامل .. وأخذت ترمقه - طيلة هذه الاثناء - دون أن تحول بصرها عنه ، وان راحت أهدابها تخفق .. وفى احدى اللحظات ، قطعت عليه حديثه لتقول بصراحة :

- كل هذا ماض لم أعد أتذكره ! .. انه لا يستحق عناء

الاطالة فى الحديث عنه !

اذ ذاك ، أمسك يدها وضغطها بين راحتيه فى وجد ، وهو يقول : « انك تعذبت كثيرا ، اليس كذلك ؟ .. أواه ،

يا كاتوشا! .. لابد من أن تصفحى عنى! .. اصفحى .. أجل ،
« اصفحى عنى ! »

قالت ، وهى راغبة فى انهاء هذا الحديث - الذى لم يكن
مجديا ، فى رأيها - لتبدأ حديثا أكثر أهمية بالنسبة لها :
« ماذا أستطيع أن أفعل ؟ »

فسألها متلعثما فى خجل : « ولكن الطفل .. طفلنا ،
أين هو ؟ »

وذهات لسؤاله ، ثم أجابت باقتضاب : « الطفل ؟ .. لقد
مات بمجرد أن ولد ! »

وفجأة ، بدلت لهجتها ، وهى تسترسل قائلة : « لم أعد
أتذكر شيئا . لقد نسيت كل شيء .. بل اننى لا أود أن أعود
للتفكير فيه ! .. اسمع ، أعطنى نقودا ، فبالنقود يستطيع المرء
شراء كل شيء هنا . اننى أموت شوقا الى اشغال سيجارة ! »
وتراجع « نيكلودوف » خطوة ، وراح يحملق فى عينيها
بأسى بالغ .. وقابلت نظراته بابتسامة واهنة ، كشفت عن
الفراغ الذى خلفته السنان الغائبتان عن فمها . ثم قالت :
« انه حكم العادة ! .. ما رايك فى اننى أفضل أن أجوع على أن
أجرم من التبغ ! »

فقال « نيكلودوف » ، وهو ينتزع حافظة نقوده من جيبه :
« سأعطيك ما تشائين حالا ! »

- أعطنى أولا بعض النقود ، بحيث يراها الحارس .
وسوف يردون لى هذه النقود فيما بعد ، عندما يحدد تاريخ
رحيلنا الى سيبيريا .. ثم ، دس فى يدي خلسة - بعد ذلك -
مبلغا صغيرا ، دون أن ينتبه أحد . كن شديد الحذر ..
هكذا ! شكرا يا عزيزى ، شكرا جزيلا !
وقال « نيكلودوف » فى سريره : « يا الهى ! أين هى .. ؟ »

ما الذى دها « كاتوشا » التى عرفتھا فيما مضى ؟ .. لست أرى أمامى سوى امرأة ميتة .. جثة حية ، مشوهة أبشع تشويه ! .. وأنا الذى فعل بها هذا كله ! »

وتحول اليھا قائلاً : « اسمعى يا كاتوشا ! .. سأفعل عن طيب خاطر كل ما ستطلبين منى ، ولكنك لم تذكرى بعد الشئ الوحيد الذى يهمنى ! .. انك لم تجيبى بشئ عن الأمر الذى سألتك بصدده . هل تقبلين الزواج منى ؟ .. صارحينى ، هل تقباين ؟ »

ورفعت رأسها ، وابتسمت .. كانت ابتسامة مفتضبة ، آسفة .. وازداد زيغ نظراتها عن ذى قبل ، وهى تسأله : « أهذا ممكن ؟ »

— أجل ، أجل .. أوكد لك انه ممكن . اننى لا أدرى رأيك أنت فى هذا . أما من ناحيتى ، فلن يكون لى — بعد اليوم — من غاية سوى أن أخدمك ، وأن أخفف من عناء الحياة عنك ، وأمحو — ما استطعت — ما ألحقت بك من أذى ! — اذا لم تكن تهزأ بى .. فإم لا ؟ .. هذه مسألة ماأوفة هنا . وقد رووا لى — بالأمس فقط — أن احدى السجينات تزوجت هنا بالذات ! .. ألا قل لى ، هل تعلم متى سترحل من هنا ؟

— كلا . لست أعرف شيئاً بعد . ولكن ، أجيبى — قبل كل شئ — عن سؤالى بطريقة أكثر تحديداً : هل توافقين على الزواج منى ؟

قالت وهى تهزأ رأسها : « ما أغربك من رجل ! .. اننى أود أن أعرف : ما حاجتك الى المرأة التى أصبحتها ؟ » .. وعادت تبتسم ، وهى تقول : « أعلم — مثلاً — اننى سأقضى الى سيبيريا ؟ »

— أجل ، أعلم .. وسيكون من دواعي غبطتى أن اذهب معك الى هناك !

وبينما كانت تبدو وكأنها تصفى اليه ، كان كل كيانه يهفو الى شيء وحيد : أن تدخن سيجارة ، وأن تروى ظمأها بقدر من النبيذ !

ومع أنها فهمت تماما كل ما كان « نيكلودوف » يقول ، فانها لم تأخذ كلامه على أنه يتعلق بها في شيء ، بل ولا به هو ..! فما كانت ترى أية رابطة بينها وبين الماضي ..! كان الأمر كله — في اعتبارها — يتعلق بشيء آخر .. بامرأة لم تعد تعرفها ..! لذلك لم تلبث أن قالت : « انك تتكلم دائما عن أمور غريبة ! »

وكان منظرها يثير القلق ، بمعطفها القبيح ، ووجهها الشاحب ، والجيوب المنتفخة تحت عينيها ، وبغياض كل مظهر للنشاط الذهني ، وكل « تعبير » في نظراتها الشاردة .. حتى ليخال المرء — لأول وهلة — أنها مجردة من العقل ..! على أن الغريب حقا ، هو أن كل هذا لم ينفر « نيكلودوف » منها ، بل زاده تشبثا بها ، وكأنما كانت تربطه بهذه المرأة الضائعة ، قوة جديدة وفذة !

وفي وعيه التام لكل ما كان عليه أن يفعل ، أحس بأن غايته — منذ الآن — هي أن يوقظ بحبه هذا الحطام البشري ، وأن يبعث الدفء في حياته .. كان عليه — منذ اللحظة الراهنة — أن يستغل كل وسيلة ممكنة لبعث « كاتوشا » الى الحياة . ولم يعد يبغى أى شيء لنفسه ، فما عاد يشتهى سوى أن يمتثل « كاتوشا » ، بانصرافه بكل نفسه — ودون ما تحفظ — الى مهمته الجديدة !

— اننى أدرى الناس بك ، وبأية امرأة انت .. اننى اذكرك ،
وأذكر قلبك بوجه خاص .. قلبك كما كان عندما التقينا
لأول مرة !

وأردف قائلا : « وانت يا كاتوشا .. ألم تعودى تذكرين
هذا ، أنت الأخرى ؟ »

فأجابته : « لا جدوى البتة من أن اتذكر هذا ! »
— أما أنا ، فلن أجد قط امرأة افضل منك .. اننى
لا أريد الزواج منك فحسب ، بل اننى أرانى غير جدير بك
.. وبصفحك !

قالت ، بنفس صوتها الخالى من أى تعبير : « كل هذا
لا يعنينى .. كل ما اطلبه منك الآن ، هو : النقود ! » ..
همست اذ لمحت — من ركن عينها — أن الحارس بعيد ، فى
لطرف الآخر من القاعة : « أعطنى مبلغا آخر صغيرا ! »

فأخرج من جيبه ورقتين من فئة الثلاث روبلات ، ودسهما
في يدها . فقالت بصوت خافت : « هذا لطف منك ، لطف
الغ ! » .. وبحركة مأكرة — لا تجيدها الا المحترفات — أخفت
ورقتين فى كمها . ثم قالت : « اسمع ! .. تعال لزيارتى يوم
الخميس القادم ، اذا لم تكن هناك شواغل تمنعك ! .. سيكون
هذا من دواعى سرورى . او اه ! لكم اود أن أرحل بأسرع
ما يمكن ! .. ليس بوسعك أن تتصور مدى فسقهم هنا ! »

وفى تلك اللحظة ، أقبلت احدى الحارسات لتقتاد
ماسلوقا . وفكر « نيكلودوف » لحظة .. لم يدر ما اذا
كان ينبغى أن يودع « كاتوشا » بقبلة ، أو يكتفى بمصافحتها ؟ !
وظلت واقفة أمامه ، وعلى محياها امارات الانتظار .

وفجأة تضرع وجهه ، كما تضرع وجهها .. تماما كما حدث
يوم التقيا وراء شجيرة « الليلا » ، قبل أربعة عشر عاما !!
ولكن عواطفهما - في هذه المرة - كانت مختلفة !

وبشئ من التردد ، أدرك « نيكلودوف » أنه لا ينبغي له
أن يقبل « كاتوشا » أمام المساء ، فاكتمى بأن ضغط على اليد
التي ظلت كعهده بها ، متماسكة ، لطيفة . وقال لها :

- الى اللقاء يا كاتوشا ! .. سأعود لزيارتك بعد أيام !
وما لبث الحراس ان قادوا المسجونين الى زنزاناتهم ،
وسرعان ما امتلأ الجو بصليل السلاسل . ومن جديد ، شرع
الجنود يحصون الزائرين في عناية ودقة ، حتى لا يبقى غريب
داخل السجن ، او يهرب مسجون !

وقبل أن يبرح « نيكلودوف » المكان البغيض ، زار المدير
ليسأله عن الاجراءات الرسمية التي ينبغي اتخاذها ، للزواج
من احدى نزيلات السجن . وبالرغم من أنها كانت كثيرة العدد ،
فانه أخذ يكتبها بعناية ، ثم بادر لفوره الى ملء صيغة رسمية
مطبوعة (استمارة) .



● اخذت (موسكو) - في تلك الفترة - تخلو من سكانها
شيئا فشيئا ، اذ كان الجميع يسارعون بالسفر لقضاء
عطلاتهم .

وغادرت اسرة « كارمالين » المدينة - هي الأخرى -
وافرادها في استياء بالغ من « نيكلودوف » ، الذي مكث
وحيدا - مع مربيته العجوز - في انتظار اكتمال الخطوات
المتعلقة بزواجه من « كاتوشا » ، وسفره معها الى (سيبيريا) .

ولم يخطر ببال « نيكلودوف » قط أن يرجع عن قراره ، منذ اتخذه . . بل انه كان - على النقيض - يشعر مع مرور الأيام ، بفبطة وهنأة تتزايدان باطراد ، وتملآن قلبه براحة ورضى لم يعرفهما من قبل !

أما « كاتوشا » ، فقد ظلت محتفظة باستمرار بذلك المظهر الذى يوحى بشيء من عدم الادراك . بيد أن منظرها المثير للنفور ، زاد من قوة الحب النقى الطاغى الذى تملك « نيكلودوف » . . ذلك الحب النزيه ، الذى لم يكن يطمع فى أى جزاء ! . . ذلك لأن الشاب لم يعد يسعى الى متعة ، ولا الى ارضاء لذاته ، انما بات كل ما يرجوه ان يسعد سواه ! . . كان شعوره شبيها بذلك الذى يساور رجلا يضم الى صدره مخلوقا حرم من الحياة ، محاولا أن يبت فيه من الدفء ما ينقذه بأى ثمن . وكان كل يوم ، بل كل ساعة ، تدكى فى نفسه هذه الجنوة المتوقدة .

ولكن هذا الحب المتجرد لم يشعره بأية متعة خاصة . . ففى مثل هذه الأحوال ، لا يبعث هذا الحدث فى نفس المرء من السرور ، قدر ما يبعث من أحاسيس رقيقة متسامية . . لهذا أحس « نيكلودوف » براحة نفس ، أوحى اليه اعتقادا راسخا بأنه انما كان يؤدى واجبه ، وانه ما كان يملك يوما أن يفعل خيرا مما كان يفعل اذ ذاك !

وكان يحدث نفسه بأنه اذا نجح فى ايقاظ مشاعرهما ، وفى احياء ذكريات الماضى الناعمة فى ذاكرتها ، وفى أن يحيى فى فؤادها مجرد الشفقة - وليس الحب - نحو الرجل الذى كان سببا فى ضياعها . . اذا افلح فى هذا ، فانه يكون قد حقق

سعادة لا سبيل الى وصفها .. غبطة كان يرى نفسه غير جدير بها !

ومع ذلك ، فاذا قدر لجهوده أن تظل بلا ثمرة ، فستبقى « كاتوشا » دائما زوجته ، وصديقه الوحيدة ، التي يكرس لها كل حبه وكل رعايته ، مهما تكن الظروف .. وكان هذا كافيا لأن يملأ حياته !

● الى جانب التدابير المتعلقة بالزواج، استحوذت شواغل أخرى على عقل « نيكلودوف » . وكانت هذه الشواغل تتصل مباشرة بمشروعاته الاجتماعية ، التي عادت الى الحياة بقوة غير عادية ..

ذلك أنه عقد العزم - وهو على أعصاب تغير جذري في حياته - على أن يتخلى نهائيا عن دوره كـ « مستغل للعبيد » . ولما كان قد أعد مشروعاته في هذا الصدد ، بكل تفصيلاتها ودقائقها ، فقد قرر أن ينتهز الأيام القلائل المتبقية من حريته ، ليزور ضيعة (ريازان) التي ورثها عن عمته ، والتي لم تكن تبعد عن (موسكو) كثيرا .

أما ممتلكاته الأخرى - التي كانت تقع في اقليمى (نيجنى نوفجورود) و (سمارا) - فقد راوده الأمل في أن يستطيع زيارتها في شهر يوليو ، قبل سفره الى (سيبيريا) ، حيث يسوى شؤونه بسرعة .

وكانت ضيعة (ريازان) تناهز ثمانمائة هكتار من الاراضى الخصبة الممتازة . ومع أنه كان من العسير - ان لم يكن من المستحيل - أن توجد في روسيا بأسرها أراض أكثر



.. ذلك انه عقد العزم - وهو على أعتاب تغير جذرى فى
حياته - على أن يتخلى نهائيا عن دوره كمستغل للعبيد !

خصوبة وأيسر فلاحه من أراضى تلك المنطقة ، فان فلاحيهما كانوا يعيشون فى أسوأ حالات مادية ومعنوية عرفها فلاحو روسيا .. ومن ثم كانت قسوة عبودية الأرض هناك أكثر وضوحا ، وأثقل وطأة منها فى أى مكان آخر .

واذ لم يكن فى الوقت متسع يذكر ، فقد دعا « نيكلودوف » جميع مزارعى القرية - فى يوم وصوله الى (پانوڤو) بالذات ، (وهى مركز ضيعة (ريزان) التى ورثها عن عمته) - وبادر بمصارحتهم بأنه لم يعد - منذ ذلك اليوم - سيد الضيعة ، اذ انها أصبحت ملكا خالصا لهم !

واشتدت دهشته حين لاحظ أن تحمس الفلاحين للنبا كن دون ما توقع بكثير . ذلك لأن فلاحى (پانوڤو) - وان كانوا دون « نيكلودوف » فى الإمام بالنظريات - كانوا يفوقونه خبرة وتجربة . وقد أدركوا ان مجرد منحهم الأرض لم يكن كفيلا بحل مشكلاتهم المستعصية .. وهذا ما لم يفقهه « نيكلودوف » الا بعد وقت طويل . اما فى اللحظة الراهنة ، فما ان أتم مهمته التقديمية هذه ، حتى بارح المكان بضمير مستريح ، موقنا من أنه قد بذل خير ما فى وسعه لارضاء أمانى الفلاحين ..

وبالرغم من الفرحة الطاغية التى بثها فى نفسه الشعور بأنه حقق - أخيرا - ما ينتجأوب تماما مع مثله العليا فى الإصلاح الاجتماعى ، فان قلاقه كان يزداد كلما فكر فى مستقبله المادى .. كان على وشك أن يصبح بلا ثروة اطلاقا ، وهو الذى اعتاد - منذ نعومة أظفاره - حياة الترف .. فضلا عن العناية بامرأة عليه أن يعولها .. امرأة كانت تعتقد أنه غنى ، وخليفة

بأن تكبده - وهى المعتلة الجسم ، والأعصاب - نفقات ما كان بوسعه ، فى لحظته الراهنة ، أن يقدر مدى ضرورتها الماسة .

على أن هذه الهموم لم تلبث - لحسن الحظ - أن تبددت بأسرع مما كان يظن : ذلك انه وان نزل عن كل الأرض للعاملين عليها ، فقد احتفظ بملكية القصر ومعمل التكرير القائم بالقرب منه . . والواقع انه لم يكن يدرى ما يفعله بهذا أو ذاك ، لذلك فما أن ظهر مشتر - كان فلاحا ثم أثرى - وعرض على « نيكلودوف » ألفى روبل ، فى مقابل البيت والمعمل ، رغبة فى أن يزيلهما ويشيد فى مكانهما منشأة أكثر ربحا . . حتى بادر من فوره الى قبول العرض ، اذ بدا له المبلغ معقولا ، وكافيا - فى أى الأحوال - لتغطية نفقات السفر والاستقرار فى (سيبيريا) مع « كاتوشا » ، فضلا عن نفقات نشر بحثه الاجتماعى ، الذى أصبح يفكر فيه أكثر من ذى قبل .

وزار القصر للمرة الأخيرة - عشية سفره من (پانوڤو) - ليودع كل ما كان مقبلا على فراقه الى الأبد . وبالرغم من أن كثيرا من التحف الفنية قد سرق فى السنوات السابقة ، فقد ظل هناك عدد كبير من التحف التى كان « نيكلودوف » - الى زمن قريب جدا - مشغوبا بها . . بيد أنه دهش للفتور الذى راح يرمقها به ، وهو يراها لآخر مرة . . انه ما كان فيما مضى يتصور أن يأتى يوم تصبح فيه المقاعد - المصنوعة من خشب (الماهوجنى) ، والمزخرفة بنقوش ذهبية - والمائدة المصنوعة من خشب ثمين ، والخزانة المقوسة البديعة ، المزدانة برأس أسد يضم فكيه على خاتم جميل . . ما كان يتصور أن يأتى يوم تصبح فيه هذه التحف ملكا للفلاح « بيليائيف » !

على أن كل هذا تراجع الى ركن قصي من ذهنه - في تلك اللحظة - وبهت ، وتحول الى صورة غير ذات معنى من صور الماضي الذي أخذ يتلاشى ، مفسحا مكانه للمستقبل الذي تبدى له مشرقا ، بهيجا ، مليئا بكل الهناء المرموق .. حتى ليقل أنه كان يتأمل الحياة - الى ذلك الوقت - وهو منكس الرأس ، فلم ير سوى أشياء تافهة ، زائلة .. في حين أنه - وهو يتقدم الآن رافع الرأس ، مفتوح العينين - أخذ يبصر آفاقا لا تحجبها حجب ، تنفتح أمامه ، أفقا وراء أفق ، تاركة كل ما كان يهتم به - في الماضي - حبيسا في دائرة ضيقة !

واذا كان « نيكلودوف » قد أقبل - في تلك اللحظة - على التنقيب في خزانة عمته « صوفي ايغانوفيتش » بكثير من التحمس ، فانما كان يأمل أن يجد فيها شيئا يتعلق بكاتوشا . غير أنه - للأسف - لم يجد ذكرا لاسم « كاتوشا » في رسالة واحدة من حزمة الرسائل الضخمة ، التي عثر عليها في الدرج الأسفل .. وان كان قد عثر - في مكان آخر - على رسالة من احدي صديقات عمته ، تستنكر فيها جحود « الفتاة التعمسة » نحو السيدتين اللتين أحسنتا اليها ، واللتين لم تكونا تبغيان سوى خيرها !

ولم يكن في « مقبرة الرسائل » هذه ، شيء يستحق الاهتمام . بيد أنه عثر في أحد الأدراج - وسط مجموعة من حافظات النقود القديمة ، والأكياس ، والنظارات ، وقطع من الورق المقوى - على صورة فوتوغرافية باهتة بفعل الزمن ، وقد انزوت في كراسة للكتابة . وكانت الصورة تمثل مجموعة من الناس ، وقد التقطها أحد الجيران ، من هواة التصوير ..

كانت العمتان - فيها - تجلسان فى الشرفة ، وعند اقدامهما ، على احدى درجات السلم ، شاب طويل الشعر ، بغير لحية ولا شارب ، لا يكاد يتجاوز السابعة عشرة من العمر ، وقد أوتى وجهها يشع طيبة ، وبراءة ، ومرحاً . وفى المؤخرة ، وقفت بين العمتين فتاة فى مرولة بيضاء ، بدا أنها كانت تبذل جهداً فى كتمان الضحك .

.. ولم تكن الفتاة الرائعة سوى .. كاتوشا !
وقال ، وهو يدس الصورة فى جيبه : « سأريها هذه الصورة ! »

● وأخيراً ، بعد أن رتب شؤونه كيفما اتفق ، رجع الى (موسكو) بعد غياب استمر ستة أيام ..
وما أن اغتسل وبدل ثيابه ، حتى أسرع الى السجن .
ولفرط أسفه ، وجد « كاتوشا » على حالها من الفتور . فما ان بدأ يحدثها عن (بانوقو) ، حتى أظهرت الاستياء ، وأخذت تردد فى اصرار ، دون أن تبدى رغبة فى الاستماع لأى شىء من الذكريات الناعمة التى أثارها « نيكلودوف » :
- لا أذكر شيئاً .. ما دمت قد نسيت كل شىء ، فليس

من المجدى أن تذكرنى ...
كذلك لم تبد أية رغبة فى رؤية الصورة .. التى تركها -
برغم ذلك - فى « الزنزانة » الخاصة ، التى كانت « كاتوشا »
قد نقلت اليها ، بفضل تدخله .

ورجع الى السجن فى اليوم التالى ، وكان من أيام الأحد ، فى بداية شهر يونيو .. كانت الأمسية رائعة ، برغم الحر

الشديد السائد في وسط المدينة ، بحيث كان يصعب على المرء أن يتنفس في الشوارع الا في الظل .. ووراء نوافذ المتاجر ذات الزجاج اللامع ، كانت الفواكه بكافة الألوان البراقة ، والزجاجات بأشكالها المبتكرة ، تجتذب الأنظار ، وكميات كبيرة من السلع منسقة بحيث تثير الانتباه .. وكان رجال الشرطة - في زيهم الخشن - يقفون في وسط الميادين وقد استلت حرارة الشمس من أجسامهم كل نشاط ، أو يتمشون الهويني على الأرصفة . وكان الحوزية يغفون - على مقاعدهم - في انتظار راكب تسوقه المصادفة ، وهم في أقمصه زرقاء يجللها الغبار ، وقبعات من الجلد مستديرة .. ومن وقت الى آخر ، كانت احدى مركبات السادة الفخمة تمرق في جلبه .. بينما ترن أجراس مركبات الترام - التي تجرها الخيل - عند مفترقات الطرق أو ملتقياتها ، وقد ارتدى محصولها وسائقوها زيا خشنا كذلك .

وهذا شاب ارتدى سروالا قطنيا أبيض ، التصق بساقيه اذ انكمش من كثرة الغسيل .. وتلك سيدة - أو عانس - بشعة البدانة ، في ثياب وردية ، تكشف عن معظم جسمها ، وقد حملت مظلة ذات زوائد (شرابات) وأخذت تجتاز الشارع ، وكلها ثقة في انها ستثير اعجاب الناس بأناقتها ! وأمام الباب المخصص لدخول العربات - في بيت فخم ، ذى احجار مربعة مطلية بالجير - جلس بواب يتطلع الى اطفال يلعبون لعبة الخيول الصغيرة ، على مقربة منه .. وخلال نوافذ البيت الواسعة ، المفتوحة ، كان المرء يلمح مسكنا فخم الرياش ، ذا اثريات ضخمة يعلوها نسيج شفاف ، وقد كسيت

مقاعدہ بأغطية لوقيتها .. وعلى أرض الشارع — المرسوفة بالأحجار — كان بائع ثلج بدين ، يدفع عربة صغيرة مليئة بسلعته ، وهو يتصبب عرقا . بينما أخذ الأطفال يرتعون فى الحدائق العامة ، وأهلهم أو مربياتهم لا يكفون عن زجرهم !

وكانت أشجار الخور والصفصاف تهرز أغصانها الوفيرة ، من فوق أسوار المنازل ، وكأنها تحيى المارة . وعلى أحد جانبي الطريق ، قام متنزه عام ، وافر الظلال ، غليل النسيمات .. بينما راح عمال رصف الطرق يكدحون على الجانب الآخر ، تحت وهج الشمس ، غير مباليين بأن اليوم كان يوم العطلة الأسبوعية ، وقد أحاطت بهم طبقات من الغبار .

وسار فى الشارع رجل مكتنز الجسم ، فى حلة من قماش خفيف ، ذى لون أصفر زاه ، وقد انتعل حذاءين من الصوف .. وفى أثره متسول حافى القدمين ، ذو وجه بدين أحمر ، وقد ارتدى سروالا وردى اللون ، ممزقا عند الركبتين !

وأخذ الجو يزداد حرارة ، و « نيكلودوف » يسير عبر المدينة ، مجتازا السوارع والميادين ، متأملا كل ما يجرى حوله .. ماضيا — على قدميه — الى السجن ، ليحدد مع القس يوم الزواج . فمنذ بات هذا الأمر مفروغا منه ، لم يخالجه الشك قط ، ولم يعد يفكر الا فى أنسب الطرق للتعجيل بالأجراءات المملة .

ولم يكن قد التقى — منذ فترة طويلة — بشخص من الوسط القديم الذى كان ينتمى اليه فى (موسكو) ، التى لم يقيم فيها قط أثناء الصيف — من قبل — فبدت له الآن كصحراء فى حلم ، نتيجة محتومة للحالة النفسية التى كانت

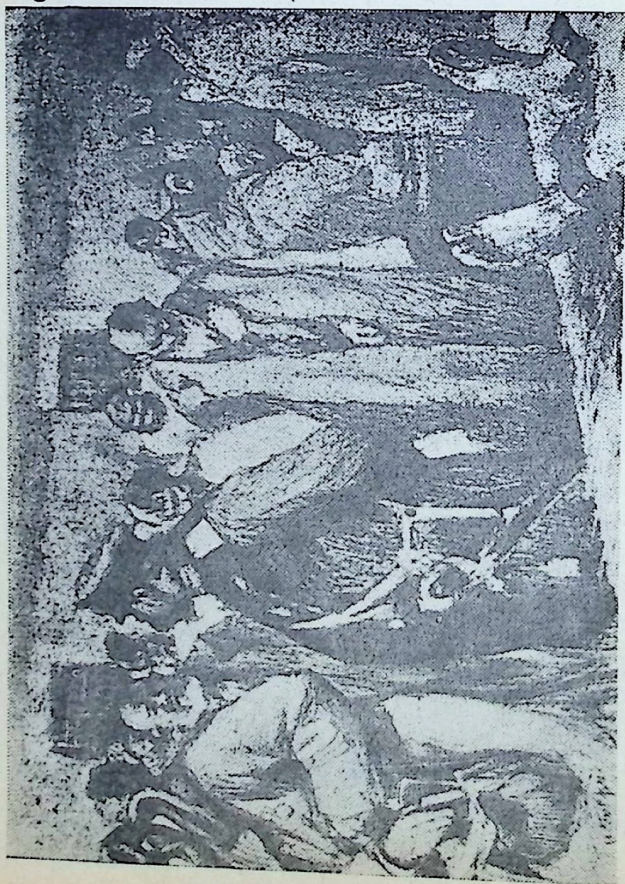
تسيطر عليه في الواقع .. ولا كان قد رأى آل « كارماين » ، منذ تناول العشاء عندهم لآخر مرة ، يوم صدور الحكم على « كاتوشا » .. ومن ناحية أخرى ، لم يكتب الى « آلين » سوى مرة واحدة ، ردا على رسالة منها أبدت فيها تمنياتها له بحظ سعيد ، في الاتجاه الجديد الذي اتخذته ! .. ولقد قالت - في هذه الرسالة الأخيرة - انها وان لم تفقه مشاعره الجديدة ، فقد كانت تعرف عن يقين أى الرجال هو ، مما كان يجعلها متأكدة تماما من أن المسألة التى أولاها كل جهوده وتفكيره ، مسألة جديرة بالتقدير . ووجهت اليه - كذلك - خير أمانيتها بالنجاح فيها .

ولم يحل استغراقه التام في ذكرياته ، دون أن يلمح مركبة وقفت فجأة عند ملتقى شارعين ، وهبط منها شخص مسرع .. كان ضابطا فارع القامة ، ذا نظارة . ومرت دقيقة كانت كافية لأن يعرفه « نيكلودوف » ، فاذا به « أورناتوف » ، المستهتر ، الماجن ، الذى يثير الضيق بثرثرته المملة ، ويفرض صداقته على الناس .. وكان « أورناتوف » زميلا له في الجامعة ، ثم في الجيش أثناء الحرب .. وقد أقبل عليه هاتفا : - أهذا انت يا نيكلودوف ؟ ! .. أية ريح طيبة دفعت بك الى هنا ؟ .. يا الهى ، ما أفزع هذا الجو !

- حقا . ان لدى بعض أعمال فى (موسكو) .. وكيف حالك ؟

- لا بأس ! .. انك لتعلم كم يسعدنى دائما أن أراك ، لا سيما فى (موسكو) ، وفى هذه الفترة من السنة بالذات .. أن لدى - أنا الآخر - أعمالا فى (موسكو) ، تتعلق بوصاية .. فأنا - أورناتوف - قد أصبحت وصيا !

وعلم « نيكلودوف » - خلال اللقاء - أن الشاب الذى كان قد بدد ثروته جزافا ، يتولى - لسخرية القدر ! - إدارة أموال أسرة غنية ! .. كان هذا الرجل نصف المخمور دائما ،



انطلق رتل المسجونين الذين قضى عليهم بالترحيل الى (سيبيريا) - وبينهم
 (كاثوشا) - في طريق (نيجنى نوڤجورود) ، وكان (نيكلودوف) قد سبقهم اليها !

الذى لا تفارق السيجارة ركن فمه ، والذى راح يتحدث في اسهاب عن الوصاية ، وعن أحسن المطاعم التى يستطيع فيها المرء أن يأكل ويشرب .. كان هذا الرجل بشرثرته المتواصلة ، وعدم اكترائه بأى شئ وأى شخص - عدا شخصه الكريم ! - واصطناعه الصداقة .. كان هذا الرجل ، وهذه الأمور جميعا غريبة بالنسبة لعقلية « نيكلودوف » الجديدة ، حتى انه راح يصفى الى « اورناتوف » ، وهو فاغر الفم ، متطلعا اليه وكأنه كائن لم يره ولا عرفه من قبل اطلاقا !

وصاح « اورناتوف » فجأة : « آه ، بهذه المناسبة .. صحيح ما يروى عن موضوع زواجك فى السجن من احدى المعتقلات ؟ .. لقد قالت لى أسرة « كارماين » هذا . فقل لى : صحيح هذا أو غير صحيح ؟ .. كن صريحا معى ، كعهذك دائما . وعلى كل حال ، فالجميع يعرفون أنك غريب الأطوار ! » فبادر « نيكلودوف » قائلا ، ليضع حدا للحديث : « أجل ، أجل .. هذا حق تماما . والى السجن بالذات أنا ذاهب الآن .

وأرجو أن تعذرنى .. فان حياتينا منذ اليوم - كما ترى - قد بدأتا تسيران فى طريقين متضادين .. ما أحسبك تغضب اذ أقول لك هذا بصراحة ، اليس كذلك ؟ »

- أبدا يا صديقى ! .. اطلاقا ! وماذا تظننى عاجزا عن فهمك ؟ .. الأمر على العكس . وأكرر : على العكس . أخشى أنك بعد كل تعارفنا ، لم تعرفنى معرفة كافية . على أن هذا ليس بالأمر المهم حاليا . وداعا يا صديقى .. انها لخسارة ألا نلتقى بعد الآن ، وربما الى الأبد .. ولكن ، هذه ارادة القدر .. الى اللقاء يا صديقى !

● كان لهذا اللقاء - غير المرتقب - اثر مستحب على نفس « نيكلودوف » ، اذ جعله يدرك كبر المسافة التى أصبحت تفصل بينه وبين معارفه القدامى ! .. وبوجه عام ، كان من

المؤلم لنفسه أن أصبح بلا صديق ، محروما من أى شخص يستطيع أن يبادل له الأفكار والمشاعر ، بقلب متفتح . أجل ، أن « كاتوشا » ستبقى له دائما ، ولكنها - فى نهاية الأمر - كانت ما تزال غريبة عنه ، وكأن روحها قد ماتت . وفيما عداها ، لم يعد له أحد

وصعد السلم ، واتجه - عبر ردهبة طويلة - الى « زنزانة » كاتوشا . وتبعه كظله حارس حمل مجموعة من المفاتيح .

وقال الحارس : « أخشى أن تكون ماسلوفا متوعدة قليلا ! .. والأمر المؤكد ، أنها لم تتناول طعاما ما ، منذ الأمس ! »

ولم يجبه « نيكلودوف » بشيء ، وتوقف الاثنان أمام باب « كاتوشا » . وعبر طاقة فى الباب ، كان من الممكن رؤية الحجرة بأكملها . لم تعد « كاتوشا » ترتدى معطف المسجونة ، وإنما كانت ترتدى قميصا رماديا ، مخططا ، طليت بنفسها صنعه لها فى السجن . . وقد نسفت شعرها وفقا لأحدث طراز ، وأحاطت خصرها بحزام عريض .

وجهد « نيكلودوف » أمام الباب ، وراح يحماق - خلال الكوة - فى السجينة التى كانت تجلس ساكنة ، وعليها مخايل التعب ، وذراعاها ترتكان على المنضدة ، وقد اعتمدت رأسها بين يديها .

على أنها رفعت رأسها ، فى اللحظة التى نفذ فيها « نيكلودوف » الى « الزنزانة » ، وتطلعت الى القادم ، ثم عادت تخفى وجهها كذى قبل ، مع فارق مفاجئ . . اذ أن جسدها لم يعد ساكنا ، بل أخذ يهتز من الانفعال وهى تحاول قمع دموعها جاهدة !

وهتف « نيكلودوف » وهو لا يقل عنها تأثرا ، وقد أحس

بصوته يختنق في حلقه : « كاتوشا ! .. ماذا بك يا كاتوشا ؟
 .. أخبريني يا كاتوشا ، ما الذى جرى ؟ »
 ولم تجب ، ولكن الدموع خانتها ، فسالت دون أن تملك
 امساكها .. وأخذ كل جسدها يرتعش .. وبدون أن تجيب ،
 وبدون أن تنهض ، بسطت ذراعها اليسرى ، وأشارت
 له نحو الصورة التى كان قد تركها لها ، فى اليوم السابق ! ..
 وصاحت أخيرا ، وسط فيض دموعها : « لماذا أحضرتها
 لى ؟ .. لماذا تبغى دائما أن تسمى الى ؟ لماذا ؟ لست أريد أن
 أذكر شيئا ، وقد قلت لك هذا مرارا عديدة .. والآن ؟ ماذا
 سنفعل ؟ اننى أسألك ! »

وقال متلعثما ، وهو يغالب دموعه بمشقة ، وقلبه يفيض
 بالسعادة : « الآن ، سيحب كل منا الآخر ، بحالتنا الراهنة ،
 يا كاتيا ! »

— أجل ، ولكنك تنسى أن الزمن قد تغير ، واننا لم نعد
 كما كنا . كلا ! .. ومن ناحية أخرى ، هل من الممكن أنك
 لا تزال تحبني ؟

— من الممكن ؟ .. أجل ، من الممكن .. من الممكن جدا .

— كلا . اننى ، من ناحيتى ، أقول لك انه مستحيل !

ونفضت ، والدموع تنحدر على وجنتيها كثيفة وغزيرة ،
 وقد تبدى على وجهها — برغم الحزن — أنفعال حار بالحياة ،
 يكشف عن صراع داخلى كبير . وصاحت ودموعها تتضاعف :
 « (ان أستطيع أبدا — يا ديوهيترى ايفانوفتش — أن أنسى من
 كنت ، وماذا أصبحت فى هذه اللحظة . ان الذى تريده أقوى
 منى ، فأنت قادرة .. »

— لقد كنت لى دائما بمثابة زوجتى .. وستكونين كذلك
 الآن بكل تأكيد . واذا كان هناك شخص جدير بالندم
 والتكفير ، فهو أنا — يقينا — ولا أحد غيرى . ويعلم الله مدى
 صدق ندمى !

واقتربت منه ، وحملت في عينيه ، وقالت : « قل لى ديميتري ايقانوقتش ، لماذا تبغى الزواج منى ؟ .. انك لن تستطيع انقاذى ، وستنتهى بنفسك الى الضياع . لن تكون لنا نتيجة ، ومن ثم فليس عليك سوى أن تتركنى ، اذا كان وقت يسمح بذلك ! »

— هذا الحل مستحيل يا كاتوشا ، اذ أن كل حياتى كز فيك . وأن مجرد حديثك الى — بهذه الطريقة — لدليل أنك قد صحت أخيرا ، وما أعظم ما يسبب لى هذا من طة ! .. ما أعظم ما يسبب لى هذا من غبطة يا كاتوشا !
— انك تحدثنى عن الغبطة ، وهى مشاعر لا يمكن أن يكون وجود فى هذه الظروف .. الغبطة قد عرفناها قبل سنوات ، عندما ...

وأمسكت الصورة — اذ قالت هذا — وراحت تتأملها ، اردفت : « كان للغبطة وجود اذ ذاك ، ولكنها لم تعد جد الآن بكل تأكيد ! .. لقد ظلت أنت كما كنت ، أو قريبا كنت .. أما أنا .. فماذا أصبحت أنا ؟ .. أين أنا ، فى هذه اللحظة ؟ .. كلا يا ديميتري ايقانوقتش ، كلا يا عزيزى اهجرنى دون تلكؤ . لم أعد أستطيع أن أعيش هكذا . سوف أشنق نفسى ، أو أغرقها فى الخمر . ألا ترى أننى دما لا أفكر فى حياتى الماضية ، تسير أحوالى سيرا حسنا مع الشيء .. أما الآن ، وقد أوقظت ، فانى أرى بوضوح لرد ، أن الحياة لم تعد ممكنة لى على الاطلاق ! »

— ولكن ، لماذا التفكير فى الماضى ؟ اسمعى يا كاتوشا ، هل كرين أحاديثنا عن وجود الله ؟ هل تؤمنين برحمته ؟
— كنت أؤمن .. فى ذلك الوقت !

— ولا تزالين تؤمنين يقينا ! .. الا اعلمى — أكثر منك فى وقت مضى — أن الله ينظر فى أعماق نفوسنا ، ولا يطالبنا

بغير شيء واحد : أن نكون صالحين ، وأن نخدمه . وما إن نسلك هذا الطريق ، حتى يغفر لنا كل ماضيينا . سنعيش للرب ، واني لأهفو الى ذلك بكل قلبى . . وأرجو أن أعيش على هذا النحو معك !

كانت هذه أول بادرة لبعث « كاتوشا » ، بيد أن البعث لم يحمل اليها كثيرا من العزاء والسلوى ، بل انها - على النقيض - أصبحت تتعذب أكثر من ذي قبل . . اذ أخذت الفكرة التى تملكته ، بأن زواج « نيكلودوف » منها كفيل بهدم حياته الى الأبد . . أخذت هذه الفكرة تعذبها بقسوة ، وتلازمها بالحاح ، دون أن تقوى على مغالبتها !

● توجه « نيكلودوف » - فى اليوم الذى أعقب هذا اللقاء العاصف - الى السجن فى الموعد المعتاد . بيد أنه لم يتمكن من مقابلة « كاتوشا » ، برغم الحاحه ، اذ كانت فى الحبس الانفرادى . . فلقد استطاعت - فى اليوم السابق - أن تحصل على خمر ، وشربت حتى ثملت ، ثم أحدثت من الضوضاء ما اضطر ادارة السجن الى وضعها فى « زنزانة » ضيقة ، مظلمة !

على أنها لم تلبث أن هدأت فى اليوم التالى ، وتحدثت الى « نيكلودوف » طويلا - وفى تلفظ - عن الماضى ، وعن المستقبل بوجه خاص . وعاهدته على أن لا تعود الى الشراب قط . وعلى أن تمارس - شيئا فشيئا - بعض الأعمال . أما القراءة ، فقد رفضت مزاولتها بلهجة لم تدع مجالا لنقاش . فما كانت تريد اطلاقا !

- كلا ، يا ديميتري ايغانوفتش . . لا أستطيع قراءة هذه الروايات والقصص . انها تتضاءل ولا تنافس بحياتى الخاصة . أهنأك قصة يمكن أن تضاهى - فى الواقع - ما مر بى فى الحياة ؟ . . كلا ، لا أظن !

ومنذ ذلك اليوم ، تغيرت « كاتوشا » تغيرا جذريا ، فقد أصبحت أكثر هدوءا ، وأكثر التزاما للمسلك الطبيعى . ولقد استمر هذا الوضع الى يوم عيد القديس بطرس .. الى اليوم التاسع والعشرين من يونيو ، وهو اليوم الذى حدد لعقد قران « كاترين ماسلوقا » والأمير « ديميتري نيكلودوف » ، فى كنيسة السجن .

وفى منتصف شهر يوليو ، انطلق رتل المسجونين الذين قضى عليهم بالترحيل الى (سيبيريا) - وبينهم « كاتوشا » - فى طريق (نيجنى نوڤجورود) .. وكان « نيكلودوف » قد سبقهم الى (نيجنى نوڤجورود) و (سمارا) ، لتصفية شؤونه المتعلقة بممتلكاته فى تلكا المنطقتين . وكان قد دبر أموره ليلحق بالرتل فى (توميين) .. وهكذا كان .

وفى تلك المدينة ، وفق الى الإقامة فى السجن المحلى ، حيث مكث المسجونون فترة طويلة نسبيا .. ثم رافقهم - كواحد منهم ، ملازم لزوجته كاتوشا ليل نهار - فى سفرهم ، بطريق البر حينا ، وبطريق البحر حينا آخر ، الى (ترويتسكو - سافسك) ، حيث أطلق سراح زوجته فى المنفى ، فاستقر معها نهائيا فى إحدى ضواحي المدينة .

● على أن مشروعات « نيكلودوف » كانت بعيدة عن أن تتحقق كاملة . وبرغم رغبته فى أن تكون له حديقة ومزرعة خضر ، يفلحهما بنفسه لسد حاجات البيت ، فقد أخفق فى تحقيق ذلك ، إذ راح يكرس قسما كبيرا من وقته للتراسل مع رجال الفكر - فى أوروبا وأمريكا - الذين كانوا يعتنقون النظريات الاجتماعية التى كان ينادى بها .

ومن ناحية أخرى ، أقبل على العمل فى كتابه ، وعلى تعليم الأطفال الذين كانوا يأتون اليه - من كل مكان - بأعداد مطردة الازدياد .. وقد اضطره هذا الى أن يعهد - طوعا أو كرها -

بشؤون مزرعة الخضر الى « كاتوشا » وأحد العمال .
وكانت « كاتوشا » - منذ وصولها الى منفاه - قد
شغلت بتغيير البيت ، وأخذت تقبل - من وقت الى آخر -
على القراءة . وفي الوقت ذاته ، ما أن ألت بالفكرة الأساسية
لكتاب زوجها ، حتى قدرتها ، وحاولت أن تكون ذات نفع له ،
بل أنها باتت فخورا به .

ونفدت ثروة « نيكلودوف » الصغيرة - أى الاثنى عشر
الفا من الروبلات التى أحضرها معه - بأسرع مما كان قد
تصور : فان بناء جناح أضافه الى البيت الصغير ، وبعض
الاعانات التى وزعها ، ونفقات طباعة بعض كتب ونشرات
- أخذت الرقابة تضعها فى القائمة السوداء تباعا ! - كل هذه
الأبواب ، التهمت الموارد المتواضعة بسرعة !

لذلك رأى نفسه - ذات يوم - مضطرا الى أن يشرع فى
كسب عيشه ، بكتابة مقالات أدبية لبعض المجلات الروسية
والأجنبية . على أنه لم يمض وقت طويل ، حتى بدت ألوان
نشاطه الجديدة مريبة فى نظر الحكومة !

وأبعد « نيكلودوف » - و « كاتوشا » لا تفارقه - الى
منطقة حوض نهر (أمور) . واذ أخذ مركزه المالى يسوء
باطراد ، وبدرجة مستفحلة ، كما أصبح مهددا بالتعرض
لأقسى عقاب ، فإنه لم يلبث أن انتهز أول فرصة مواتية ،
للهرب الى الخارج ، مصطحبا « كاتوشا » .

ويعيش « نيكلودوف » - فى الوقت الحاضر - فى وثام
تام مع « كاتوشا » ، فى لندن ، حيث لا يعرف أحد شيئا عن
ماضيها !

وهو يمضى دأبا فى نشر أفكاره الاجتماعية - الحبيبة
اليه ، والتى كبدهته غالبا - محوطا بتقدير أنصاره وتلاميذه .

« تمت »

قالت زوجهي! (لحن إلى كرويتزر)

للروائي الروسي الكبير
ليو تولستوي



KREUTZER'S SONATA

By : LEO TOLSTOI

ترجمة : حلمي مراد

عزيزى القارى ..

القصة التى أقدمها لك فيما يلى ، تكاد تنفرد بين قصص تولستوى بظاهرتين : الاولى انها تتوسط بين الرواية الطويلة والقصة القصيرة ، فهى بمثابة « رواية طويلة » قصيرة ، أو « قصة قصيرة » طويلة !

اما الظاهرة الثانية ، والاهم ، فهى أن القصة صرخة جبارة فى وجه الرجعية الاجتماعية والتقاليد البالية التى كان ينوء بها كاهل المجتمع الروسى فى القرن الماضى ، كما ينوء بها المجتمع الشرقى - الى حد ما - حتى الآن .. بل انها صرخة قوية فى وجه « انانية » الرجل ، التى تملى عليه أن يمنح نفسه من الحقوق ما يبخل به على شريكة حياته ! .. وهى من ثم دعوة عادلة الى مساواة المرأة بالرجل فى حق اختيار شريك الحياة ، على أساس من الميل والتفاهم المتبادل ، وفى حق هجره والتمرد على معاشرته اذا انعدم هذا الميل او تعذر التفاهم !

بل ان القصة دعوة صريحة الى زواج الحب ، وحملة موفقة على زواج « الواجب » ، أو المصلحة ، أو مجرد الزواج بفرض تكوين بيت وأسرة وانجاب أطفال .. أى الزواج من طاهية ومربية ، لا الزواج من « انسانة » ذات مشاعر وقلب وذهن !

وقد اطلق تولستوى على القصة اسم «الحن الى كرويتزر» ، وهو اسم اللحن التاسع من الحان بيتهوفن التى وضعها للبيانو والكمان المنفرد - بخلاف سمفونيته التاسعة الجماعية - وكان بيتهوفن بدوره قد اختار هذا الاسم نسبة الى عازف الكمان الباريسى ذائع الصيت « رودلف كرويتزر » الذى كان معاصرا له ، فاهدى هذا اللحن اليه ..

وعلى أن كل الصلة بين لحن بيتهوفن وقصة تولستوى هذه ، لا تتجاوز فى الواقع أن بطل القصة - الزوج المدب - كان يحس ، كلما سمعه يعزف ، كان « شياطين الحواس ثور وتغلى فى دماائه ! » .. اما سياق القصة ومفزاها الحقيقى فيدوران - كما أسلفنا - حول « ثالوث » هذه المشكلة الازلية المقعدة : مشكلة الحب ، والزواج ، والخيانة !

— ١ —

⑤ كنا في بداية الربيع .. وكانت قد مضت على بدء رحلتنا أربع وعشرون ساعة ، صعد فيها الى القطار ركاب ، وهبط منه ركاب .. فيما عدا ثلاثة غيرى لم يتغيروا ، منهم سيدة ذات وجه يبدو عليه الاجهاد ، لاهى بالجميلة ولا الشابة ، تدخن السجاير وترتدى قبعة أشبه بقبعات الرجال .. وبرفقتها رجل ثرثار - عرفت فيما بعد أنه محام - فى نحو الأربعين ، يحمل معه حقائب كلها جديدة ونظيفة .. وثالثهم رجل قصير متحفظ ، فى أوسط العمر ، وخط الشيب شعره قبل الأوان ، تبدو العصبية الشديدة على حركاته ، وتبرق عيناه ببريق الذكاء ، وتنتقلان فى جميع الاتجاهات فلا تستقران على شيء .. على أن أغرب ما بدا منه ، شبه سعة - أو لعلها ضحكة مقتضبة - كانت تصدر منه أحيانا ، بغير معنى أو مناسبة ! .. وقد حرص طيلة الرحلة على تجنب كل تعارف أو حديث مع بقية الركاب ، فكان اذا سأل أحدنا سؤالا ، أجاب فى اقتضاب تام .. ثم عاد الى سيجارته يدخنها ، أو كتابه يقرأه ، أو الى النافذة يتطلع منها .. أو أخرج زاده من جرابه القديم ، فتناول قدحا من الشاي أو شيئا من الطعام .. ورغم ذلك فقد خيل الى أنه يضيق بوحده المرهقة ، فحاولت أكثر من مرة أن أجاذبه الحديث .. ولكنه - فى كل مرة كانت تلتقى فيها أعيننا - بحكم جلوسنا متواجهين - كان يشيح عنى .. ويعود الى الكتاب أو الناقذة !

— ٢ —

وفي المساء وقف القطار بمحطة كبيرة ، فغادر هذا المسافر العصبى المزاج العربية ليتناول قدحا من الشاي ، كما خرج المحامى بصحبة مرافقته .. ودخل أثناء غياب هؤلاء عدة ركاب آخرين ، من بينهم شيخ طاعن فى السن ، فارع القامة ، حليق اللحية ، يبدو أنه تاجر .. جلس فى مواجهة المحامى واندمج فى الحديث مع شاب دخل العربية فى المحطة ذاتها ..

ولما كنت جالسا فى منتصف الأريكة المقابلة ، وكان القطار قد توقف وانقطعت حركة مرور المسافرين ، فقد استطعت أن استمع الى بعض ما كان يقال .. دار الحديث فى بادئ الأمر ، كالمعتاد ، حول الحالة التجارية ، والأسعار الحاضرة فى موسكو .. ثم انتقل الى ذكر السوق التى أقيمت فى معرض مدينة (نيجنى نوفجورود) ، وعندئذ بدأ الشاب يتحدث عن المغازلات الغرامية التى صدرت من رجل متقدم فى السن فى ذلك المعرض .. لكن الشيخ قاطعه متحدثا بدوره عن أساليب الغزل فى الماضى ، مفاخرًا بما كان له فيها من نصيب .. وكيف أنه وزميلا له شربا مرة حتى ثملا ، ثم أتيا من الحيل والمغامرات ما يستحى من ذكره الا هامسا ! .. فأغرق الشاب فى الضحك بصوت مرتفع ، وضحك الشيخ بدوره ..

وخرجت من العربية لفترة ما ، وحين عدت كان المحامى وصديقه قد عادا ، وكانت المناقشات قد حمى وطيستها .. فسمعت المحامى يقول : « .. وعلى أثر ذلك أوضحت المرأة لزوجها أنها لا تريد - ولا تستطيع - أن تعيش معه بعد ذلك ! » .. وهنا علت أصوات العابرين فى الممر ، فحجبت عن سمعى بعض عبارات الحديث .. فلما خفت الضجيج ، طرق أذنى صوت المحامى يقول : « ان انتشار الطلاق قد بات يشغل الأذهان فى أوربا ، بل أن هذه الظاهرة قد بدأت تتفشى فى بلادنا

الروسية أيضا » .. ثم خفض من صوته موجهًا الحديث للشيخ ، وعلى فمه ابتسامة : « لم تكن الحال كذلك في عهدنا ، ليس كذلك ؟ » .. فأجاب الشيخ : « لقد كان الشيء نفسه يحدث ، ولكن بدرجة أقل .. أما اليوم فقد ازدادت حالات الطلاق ، بسبب ازدياد المدنية .. »

فقاطعت المرأة : « ما وجه الخطأ في مدنية هذه الأيام ؟ أتقصد أنه من الأفضل تزويج الفتاة بالطريقة التي كانت تتبع قديما ، دون أن يسمح للعروسين بأن يتقابلا قط قبل الزواج ؟ ان الناس وقتئذ لم يكونوا يدرون شيئا عن مدى قدرة الواحد منهم على أن يحب شريك حياته ، وكان الرجل يتزوج من الفتاة التي تلقاها الأقدار في طريقه ! فكان ذلك الزواج ينتهى غالبا بالفشل والشقاق ، بل والتعاسة التي تلازم الزوجين مدى الحياة ! .. فهل ما زلت تفضل طريقتنا القديمة في الزواج ؟ »

ولم يجب التاجر الشيخ عن سؤالها هذا ، وإنما قال : « لقد بلغنا في عصرنا الحاضر درجة عظيمة من المدنية .. لكنى أود أن أعرف : كيف توضحين الصلة بين تقدم المدنية وازدياد الخلافات الزوجية ! ؟ »

وهنا كاد الشاب أن يدلى بتعليق ، لولا أن قاطعت المرأة محدثها : « ان ذلك الزمن الذى تتفنى به قد ولى .. الى غير رجعة ! »

فقال الشيخ فى اصرار : « هذه سخافات الثقافة الحديثة ! »

واذ ذاك استطردت المرأة ، وهى ترمق المحامى بنظرة : « كثيرا ما يحدث أن يتزوج الشاب من فتاة دون أن يجمع الحب بين قلبيهما ، ثم يدهشان بعد ذلك حين يعجزان عن

تحقيق الوفاق فى حياتهما .. ان الطريقة القديمة لهى طريقة
الحيوانات التى تأتلف بأمر سيدها ، أما الرجال والنساء فلهم
مشاعر ، ورغبات ، وميول .. ! »

فقال الشيخ : « حديثك هذا لا يؤدى الى الغرض
المقصود .. ان الحيوانات وحوش تعيش على الفطرة ،
أما الانسان فانه يسير فى حياته وفق قوانين معينة .. »

— كيف تستطيع المرأة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟

— لم نسمع بمثل هذا ولم نألف النقاش فيه .. هذه
بدعة من بدع هذا الزمن الذى أصبحت فيه المرأة تهدد الرجل
بقولها : « سأهجر ! » .. بل لقد سرت العدوى حتى الى
الريف ، فصرنا نسمع عن المرأة التى تقول لزوجها : « سأتركك
وأذهب مع رجل أفضل منك ! » .. لا جدوى من الجدل :
ان كل ما تحتاج اليه المرأة هذه الأيام هو .. الخوف !

— الخوف ؟ ممن ؟

— الخوف من الزوج بالطبع !

— لقد مر زمن الخوف وانقضى !

— كلا يا سيدتى .. ان زمن الخوف لم ولن ينقضى ! وكما
خلقت حواء من ضلع آدم ، فسوف تظل المرأة هكذا الى
الابد !

— هذا ما تقررونه انتم ايها الرجال ، يا من تفرضون
علينا طاعتكم .. انكم تودون أن تحبسوا النساء فى (الحرملك) ،
أما بالنسبة لكم فكل شىء محلل مباح ! ألا تتفق معى فى أن
المرأة انسان بشرى ، لها مشاعرها كلها للرجل تماما ؟ .. فماذا
تراها فاعلة ، اذا لم تستطيع أن تحب زوجها ؟ !

فقال الرجل وهو يكرر كلماتها بلهجة كلها خشونة
وانفعال :

- لا تحب زوجها ؟ ! انها يجب أن تتعلم كيف تحبه !
- قد لا يحدث هذا الذى تتوقعه ، فانها قد لا تستطيع أن تحبه .. وأذا انعدم الحب فلا يمكن فرضه بالقوة !
- قد يحدث ما تقولين ، ولكن ليس عندنا ..

- بل لقد حدثت مهزلة من هذا النوع فى بيت رجل لطيف ، منذ عهد قريب : اذ اتفق أن كانت الزوجة مولعة بالمجتمعات ، فبدأت تفازل شابا وسيما ! وقد حاول زوجها أن ينصحها بالحسنى ، فلم تنتصح .. بل ازدادت خداعا وعريضة .. حتى لقد باتت تحتال عليه بأقذر الطرق ، وتسرق من نقوده !.. فضربها وسامها العذاب ، لكنها لم ترتدع .. وأخيرا فرت مع شاب يهودى ، غير أنه لم يلبث أن نبذها وأثر أن يعيش حرا .. فانتهى بها المطاف الى أن صارت من نساء الهوى !

- ذلك لأن زوجها كان جاهلا فلم يستعمل الشدة معها منذ البداية ! كان خطأ منه أن يصرح لها بتنفيذ رغباتها .. والمثل يقول : « لا تأتمن حصانك فى الحقل ، ولا زوجتك فى البيت ! » .. نعم ، علينا أن نردع المرأة فى الوقت المناسب ، وألا انتهى كل شيء الى دمار محقق !

عندئذ لم أتمالك مشاعرى ، فقلت للشيخ : « ألم تقصوا علينا - أنتم المتزوجون - كيف استمتعتم فى سوق معرض (كونافينو) بالمغازلات الغرامية ؟ »

فقال التاجر الشيخ : « هذا موضوع شخصى .. » ، ثم لاذ بالصمت !.. وحين أنبعث صغير القطار ثانية نهض التاجر فأعد حقيبته ، ولف شاله حول رقبته ، ثم رفع قبعته محييا وغادر القطار .. ولم يكد يختفى حتى ارتفعت عدة أصوات

فى وقت واحد ، فقالت المرأة فى سياق الحديث : « الشئ الرئيسى الذى لا يستطيع هؤلاء الرجال فهمه ، هو أن الزواج بغير حب ليس بزواج ، وان الحب وحده هو الذى يجعل الزواج مقدسا ! »

وفيما كانت تتكلم ، انطلقت زفرة حارة من الرجل القصير المستوحش ، وكان الانفعال قد دفع الدم الى وجهه ، وجعل عضلات خده تختلج .. ولم يلبث أن قال ، مساهما فى المناقشة : « أى حب هذا الذى .. يقدر الزواج ؟ » ولحظت السيدة انفعاله ، فأجابته فى رقة : « الحب الصحيح ، بين الرجل والمرأة .. فهو وحده الذى يجعل الزواج موفقا » .

- ولكن ماذا تعنين بالحب الصحيح ؟ عرفيه !

- الحب ؟ .. انه الأفضلية التى يخلعها الرجل أو المرأة على شخص ما ، بحيث يميزه عن سائر البشر !
- وكم من الزمن يجب أن تستمر هذه الأفضلية أو التمييز حتى تسمى حبا : شهرا ، أم شهرين .. أم نصف ساعة ؟

فأجابت السيدة وهى تهز كتفيها : « أحيانا تدوم العبر كله ! »

- هذا يحدث فى القصص فقط ، أما فى الحياة الواقعية فلا يدوم الحب عادة أكثر من سنة واحدة .. وأحيانا يقاس عمره بالأشهر ، بل بالأسابيع ، والأيام ، والساعات !

وكان يتكلم بسرعة متزايدة ، وعصبية شديدة .. ثم صمت برهة ، استطرد بعدها يقول ، فى هدوء مصطنع : « والآن ، احسب انكم عرفتم من أكون ! »

- كلا ، لم نحظ بعد بهذا الشرف ..

— لن يكون شرفا عظيما على اى حال ..! اسمى
 ((بوزدنيشيف)) ، وقد كنت أحد الذين امتحنتهم الأقدار
 بكارثة رهيبة : كارثة اضطرار الزوج الى قتل زوجته !

قال ذلك وشرع يجيل بصره فينا واحدا واحدا .. لكن
 أحدا منا لم ينطق بحرف .. فأردف الرجل فى أسى : « أحسب
 الأمر لا يهمكم ، فاغفروا لى ثررتى .. وأعدكم بأنى لن أثقل
 عليكم بأكثر من ذلك ! »

فغمغم المحامى بكلمة تحية وتشجيع ، لكن بوزدنيشيف
 لاذ بالصمت .. ولم يلبث كل منا أن عاد الى ما كان منشغلا
 به قبل الحديث . وحين بلغ القطار المحطة التالية ، انتقل
 المحامى ورفيقته الى عربة أخرى .. واستسلم الشاب لنعاس
 شهى ، فالتفت بوزدنيشيف الى قائلا : « لعله لا يروك
 الجلوس معى ، بعد أن عرفت من أنا ، فاذا كان الأمر كذلك
 فسوف أتركك وانتقل الى مكان آخر .. »

— كلا ، أرجوك ..

— أو لعلك تريد أن تنام ؟

— كلا ..

— اذا كان الأمر كذلك فسوف أقص عليك — اذا شئت —
 كيف قادنى ذلك الحب بعينه الى فعل ما فعلت !

— يسرنى سماع قصتك ، اذا لم تؤلمك الذكرى ..

— بل بالعكس ، فان فى ذلك تسرية عنى ..

وفى تلك اللحظة مر بنا التذكرى ، فأمسك محدثى لسانه
 حتى غادر الرجل العربة ، وهو يتبعه بعينين حذرتين ،
 وعند ذاك فرك وجهه بيديه ، ثم انطلق يروى مأساته :

— ٣ —

« كنت قد تخرجت فى الجامعة ، شابا مترفا يملك ضيعة ، وينتمى الى طبقة الأشراف .. فعشت كما يعيش رجال طبقتي ، حياة طليقة من كل قيد . وأعتقد أنى كنت انسانا جذابا ، على شىء من الخلق القويم ، فما كنت يوما بالمتهاك على الملذات ، المجرد من الضمير ، ولا كان اللهو مع النساء هوايتى الوحيدة فى الحياة — كما كان الأمر بالنسبة لكثيرين من زملائى — وانما كان الاعتدال رائدى فى هذا المضمار ، محافظة على صحتى على الأقل . وكنت أحرص دائما على تجنب كل رابطة روحية بينى وبين النساء اللاتي كانت لى معهن صلات من اللون الآخر ! .. ومن هنا نشأت كل متاعبى المروعة التى سبغت حياتى فيما بعد ! .. اعذرني اذا لم أستطع الاحتفاظ بهدوئى وأنا أتحدث فى هذا الموضوع ، بسبب الكارثة التى حلت بى فى صدره ، ولكن صدقنى انه منذ وقعت تلك الكارثة ، انفتحت عيناي .. فرأيت كل شىء على ضوء مخالف لما كنت أراه عليه ، بل على عكس ما كنت أراه قبلا !! »

وكان يدخن سيجارته ، فاتكأ بمرفقيه على ركبتيه ، واستأنف كلامه .. وكان الظلام قد شمل العربة تماما ، فلم أعد أرى وجهه ، وانما سمعت فقط صوته الجذاب يمضى فى الحديث :

« بدأت الكارثة وأنا فى سن السادسة عشرة .. ولم اكن قد عرفت المرأة بعد ، ولكنى — كسائر اخوانى الطلبة — لم

أكن بالفتى الساذج . كان زملائى قد أفسدوا من قبل أفكارى ، فبدأ بالى ينشفل بالمرأة ، والبحث عنها ، والجرى وراءها . . لا امرأة بعينها ، وانما المرأة ككائن شهى ، كجنس آخر . . أى امرأة ! . . لكنى أخيرا سقطت ! سقطت باغراء زميل مرح من « اخوان السوء » كان قد علمنى من قبل لعب الميسر ، وشرب الخمر ، ثم توج جهوده أخيرا باقتيادى الى . . هناك !

« وهكذا ترديت فى الهاوية . . وساعد على وقوعى فيها أننى لم أكن أسمع أحدا من الكبار « المحترمين » يحذرنى من ذلك ، أو ينبهنى الى خطورة فعلتى . .

« بل لم يقتصر الأمر على عدم سماعى أى تحذير من أحد فى هذا الصدد ، وانما تجاوزته الى سماع الكثير من عبارات التحبيذ والتشجيع ، سواء من جانب الشيوخ والرجال الناضجين الذين أحترمهم ، أو من جانب زملائى « المجريين » الذين يكبروننى . . أو من بطون الكتب . . وكانت حجة الجميع فى هذا التحبيذ تكاد تكون واحدة : الحرص على الصحة والأعصاب ، مع عدم اغفال الوقاية من الأمراض الخبيثة المعدية !

« وهكذا سنقطت تلك السقطة الرهيبة ، بغير أن أدرك وقتئذ أنها سقطة . . وان كنت أذكر جيدا أنى قبل أن أغادر ذلك المكان ، شعرت باحساس من الكآبة الغريبة ، والأسى العميق !

« ومنذ ذلك اليوم أطلقت لنفسى عنان الارتواء من تلك

الملذات — الضرورية ! — حتى اعتدتها ، كما اعتدت من قبل
كلا من التدخين والخمر .. ففقدت براءة الذهن التى كانت
تتيح لى أن أنشئ صلات صداقة بريئة صريحة مع النساء ،
وصار نقاء علاقتى بأية امرأة .. ضربا من المستحيل !
أو بعبارة أخرى صرت ما يسمونه بالفتى الداعر .. أو ذلك
الانسان غير الطبيعى الذى فقد ارادته .
« وكان ذلك بداية انهيارى ! »

— ٤ —

« ومضت الأعوام ، وأنا ماض فى غيى .. يا الهى ، اننى
حين أذكر كل الموبيقات التى ارتكبتها فى هذا المضمار ، أقشعر
رعبا ! .. وبرغم ذلك ، فاننى وامثالى من « شباب المدينة
الذهبي » حين كنا نقبل على صالون زاهر أو مجتمع رفيع ،
مرتدين ثيابنا الفاخرة ، بوجوه مفسولة وذقون حليقة معطرة
وشعر مصفف ، كنا نستقبل بأبلغ آيات الاحترام والترحيب
والاعجاب !

« هذا ماكان يحدث فعلا ، ولا يزال يحدث .. ولو أنصف
المجتمع واعتدلت الأوضاع والمقاييس ، لكان فرضا على كل
رجل يرى شابا داعرا يقبل على مجلس فيه أخته أو ابنته ،
أن ينتحى به جانبا ويهمس له فى غير ضجة : « اصغ الى
يا صاح .. أنا أعرف جيدا كيف تعيش ، وأين ومع من تقضى
لياليك .. وهنا توجد فتيات ونساء طاهرات وبريئات ، فهذا
ليس مكانك .. ورجائى اليك أن تذهب ! »

« هكذا عشت ، حتى سن الثلاثين .. وطيلة تلك
السنوات ، كنت أفكر جديا فى الزواج ، بمجرد عثورى على

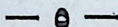
الفتاة التى تناسبنى . وكان الشرط الأساسى الأول الذى اشترطه فيها هو الطهارة الخالصة ! .. وأخيرا وجدت ضالتي فى ابنة أحد موظفى حكومة (بنزا) . كنت قد قضيت يوما كاملا فى صحبتها ، وفيما نحن عائدان فى قارب شراعى تحت ضوء القمر ، شعرت أنها فتاتى المنشودة ، واننى أتمنى ألا أفارقها أبدا ، وانها خير من تفهم أفكارى ومشاعرى ! .. يا لسلطان الجمال علينا نحن الرجال ! ان المرأة الجميلة تتفوه بكل ألوان الحماقات ، فيخيل اليك أن ما تقوله هو الحكمة المصفاة ! وتنطق بالألفاظ والعبارات المبتذلة ، فيبلغ كلامها مسمعا وقد صار آية من آيات التأدب والاحتشام !

» وفى اليوم التالى تقدمت لخطبة الفتاة من أبيها . . وذات يوم خطر لى أن أطلع خطيبتى على مفكرتى التى دونت فيها بعض ادوار ماضى الحافل ، كى تعرفه على حقيقته منى - قبل أن تنقله اليها ، مشوها ، وشايات الوشاة ! - فلم تكد تفرغ من قراءة المفكرة حتى ارتسمت على وجهها أبلغ مظاهر الرعب ، واليأس ، والاشمئزاز ، حتى لقد خشيت أن تهجرنى على الأثر . . وليتها فعلت ! .. لكنها لم تفعل . . فقد أفلحت مؤهلاتى - مركزى وثروتى وأناقتى - فى اتمام الصفقة ! .. ولم أكن أعلم يومئذ - كما أعلم الآن - أن المرأة تنتقم لحرمانها من حق اختيار الزوج الذى ! السيطرة - بعد الزواج - على الزوج الذى ! والظاهرة الغريبة فى موقف مثل هذه الزوجا النقيضين : فهى من ناحية تكون ذليلة للزوج وشهواته . . ومن الناحية الأخرى تعوض

واسترقاق حواسه لفتنة جسدها ، فينتهى بها الأمر الى السيطرة عليه تماما ، من حيث يحسب هو أنه المسيطر ! ..
وكان لسان حالها يقول : « أتريدوننا أيها الرجال أن نكون مجرد أدوات متعة ولذة لكم ؟ .. حسنا ، فاننا بواسطة هذا السلاح نفسه سوف نجعلكم لنا عبيدا ! » ، والنساء بطبعهن أسوأ من يستخدم السلاح الذى يوضع فى أيديهن .. أيا كان !

« هكذا يا سيدى تسيطر النساء على الرجال .. وهكذا تتحول قوى الانتاج الصناعى ، ونشاط الهيئات العاملة فى المدن والبلدان المتحضرة الكبرى ، الى خدمة نزوات النساء ، والتوفر على ارضائهن .. والا فادخل أى محل تجارى تراه فى طريقك ، تجد أن تسعين فى المائة من البضائع والأموال المستثمرة فيه ، تخص النساء ! .. وان كل ترف الحياة وأطايها معد للنساء .. وان الملايين من الرجال والأجيال المتعاقبة من العبيد يفنون حياتهم فى المصانع ، لا لشيء الا لاشباع نزوات النساء ، ونهمهن الى العربات الفاخرة ، والثياب الأنيقة ، والمجوهرات الغالية ، وسائر الكماليات وأدوات الزينة والترف ! .. وهكذا تقرّب النساء كالمقيصرة ، فوق عروشهن ، ناعمات الببال ، قريرات العين .. وكل هذا سببه حرمانهن من حق المساواة بالرجال ، وانتقامهن لأنفسهن بتشغيلنا لانتاج أدوات الجمال والاغراء ، التى تمكنهن من السيطرة على حواسنا ، واستعبادنا ! ولست أدري لماذا لا تعاقب المرأة ائفالية فى التأنق ، كما يعاقب كل خارج على القانون ؟ أوليست تهاجم حواس الرجل الى حد يستحيل معه عليه أن يحتفظ بهدوئه فى وجودها ؟ .. اننى أشعر

أحيانا ، عندما يقع بصرى على امرأة متأنقة ، بدافع يغرينى بمناداة رجل البوليس كى يتولى حمايتى من ذلك الخطر الداهم ، كما يحمى الناس من أى شىء مخالف للقانون .. وأى فارق بين أن تسمح الدولة بمظاهر تأنق وتزين النساء ، التى تلهب العواطف وتضر بالأمن الاجتماعى ، وبين سماحها باقامة شتى أنواع الفخاخ والمصائد للمارة فى الطرقات ؟ !



❶ « وانقضت فترة الخطبة ، وأسرتانا فى أخذ ورد ، ومفاوضات ، ومشاورات ، بشأن المعدات التقليدية لكل زواج : الأثاث ، والمسكن ، وأغطية الفراش ، والثياب ، وعلب الحلوى .. الى آخر هذه السنخافات والمظاهر الجوفاء التى يقصد بها عادة اخفاء معالم « الجريمة » الأصلية ، جريمة « بيع » الفتاة الطاهرة الى الشاب ذى الماضى الدنس ، كآية صفقة تجارية !

« ولكن ، هكذا يتزوج الناس جميعا .. وهكذا تزوجت انا !.. وبدأ شهر العسل البقيض .. وبالرغم من الجهود التى بذلتها كى ينجح زواجى ، فانه قد فشل .. وبدأت أعراض فشله تظهر منذ اليوم الثالث أو الرابع . وجدت عروسى منقبضة ، فبدات أسألها عن سبب انقباضها ، وأحيطها بذراعى ، بكل ما وسعنى من حنان .. لكنها دفعت ذراعى بعيدا وأخذت تبكى بحرقة ! وحين عدت أسألها عن الأسباب ، قالت شيئا فهمت منه أنها اشتاقت لأمها .. وخيل الى أنها كاذبة ، وانها تخفى السبب الحقيقى لانقباضها ،

فجعلت أسرى عنها وأواسيها .. بغير أن أتعرض لأمها ، بخير أو شر .. لكن اغفالى ذكر أمها قد ساءها ، واستنتجت منه أننى لم أصدقها ، فثارت واتهمتنى بأنى لا أحبها ! .. واذ ذاك ثرت بدورى ، واتهمتها بالحماقة والرعونة .. فتغير وجهها على الفور ، وشرعت تكيل لى تهم الأنانية والقسوة ، بأمر الألفاظ .. فجعلت أتأملها صامتا : كان وجهها يعبر عن البرود ، والعداء ، والكراهية ، الأمر الذى أزعجنى على الفور وجعلنى أسأل نفسى : ما معنى ذلك ؟ اذا كان هذا مبلغ « حبها » لى فى شهر العسل ، فكيف يكون الأمر فيما بعد ؟ وأية حياة مريرة بدانها ! ؟

« حاولت ان أهدها .. لكن محاولاتي اصطدمت بحائط شامخ من البرود ، والعداء المضر لى ، الى حد أنى .. قبل ان أجد وقتا للتفكير - تملكنى حنق شديد ، فتبادلنا الكثير من العبارات العنيفة ! وكان لذلك الشجار الأول أثره السيء على نفسيتى . لقد سميت « شجارا » ، لكنه كان اكتشافا « للهوة » الواسعة التى تفصل بيننا ، والتى ازدادت اتساعا فيما بعد ! .. وكان أكثر ما أزعبنى فى هذا الشأن حسبانى وقتئذ أننى الزوج الوحيد الذى ابتلى بهذا البلاء . لم أكن قد تبينت أن أكثر الأزواج منكوبون بزوجات من هذا الطراز ، وان كل واحد منهم يحسب نفسه التمس الوحيد من بنى جنسه ، فيحاول جاهدا اخفاء حظه السيء عن الآخرين ، وعدم الاعتراف به .. حتى لنفسه !

« وقد جربت فعلا هذا الميل الى تجاهل الأمر الواقع ،

وعلم أدراكى - منذ بدأت تلك المشاحنات - أن زواجى لم يكن موفقا ، وأن فشله لم يقتصر على حرمانى من السعادة التى كنت أنشدها ، بل تعدى ذلك الى اشعارى بأن حياتى قد ابتليت بهم مقيم ! وهذا يعطيك فكرة عن الرابطة الوحيدة التى كانت تربطنا ، والتى كانت أشبه برابطة الشريكين فى جريمة ! وهل أدل على تلك الجريمة من أن التبعة حملت قبل انقضاء شهر على زواجنا ؟ !

« وهكذا عشت أشبه بخنزير !.. وكان أبشع ما فى الأمر تصورى أننى أحيا حياة عائلية فاضلة ، وأننى رجل ذو خلق مثالى ، ما دمت لا أخون زوجتى مع نساء أخريات .. وأننى لست المألوم على ما ينشأ بيننا من شجار ، وإنما هى المألومة !.. وهذا خطأ فاحش بطبيعة الحال ، فانها فى الحقيقة لم تكن تستحق لوما من أجل ذلك ، بل كانت مثل غالبية النساء المترفات اللواتى من طبقتها .. ورأيتنى أسائل نفسى : ما هى نظرة الرجل الى المرأة فى المجتمع العصرى ؟.. انه يعلن الآن دائما وفى كل مناسبة أنه يحترم المرأة ، ويدين لها بنجاحه ومركزه ، وإذا سقط منها منديل انحنى فالتقطه لها !.. وهو قد يعترف لها بحقها فى التمتع بحقوقها السياسية وشغل المناصب العامة .. لكن رأيه فيها فيما عدا ذلك لم يتغير : فهى ما تزال أداة لهو ومتعته ، التى يجب أن تخضع دائما لأهوائه ونزواته . وهى تعلم هذا كله ، وتعهده - بحق - مرادفا للرق والعبودية ، شأنها فى ذلك الآن شأنها من قديم الزمان ! »

ثم سكت الرجل لحظة ، وعاد يقول :

« ولنعد الى ما كنا فيه .. مرت اشهر الحمل فى حِصام وشجار متقطعين .. وحين وضعت مولودها رأى الأطباء أن صحتها لا تحتمل مشقة ارضاعه بنفسها . وهكذا ، للمرة الأولى ، حرموها - بل حرمونى - من الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الغواية والضلال .. اذ لم تكد تتحرر من غير الحمل والارضاع حتى استيقظت فيها أنوثتها النائمة ، بصورة عنيفة ، فاستيقظت فى - تبعاً لذلك - غيرتى عليها بصورة أعنف ، وأشد حدة .. وخاصة بعد أن رأيت كيف قبلت عن طيب خاطر ، وفى سهولة ويسر ، أن تتخلى عن مسئوليتها كام ، فقدرت احتمال تخليها ، بنفس السهولة ، عن واجبها كزوجة !

« وهكذا ظلت فريسة لغيرتى زمناً ، ولم ينقذنى من هذه الغيرة غير حمل زوجتى مرة أخرى ، ثم مراراً على التعاقب .. وارضاعها وتربيتها لأطفالها الجدد ، الذين أنقذونى وأنقذوها .. فلقد انجبت فى خلال ثماني سنوات خمسة أطفال ، ارضعهم وربتهم جميعاً بنفسها ، باستثناء الأول ..

« وعلى ذكر الأطفال ، كلنا نعلم أنهم بركة الهية ، ولكن اسأل أمهات اليوم يقلن لك : ان الأطفال لعنة ! وانهن لا يرغبن فى انجابهم قط ، خوفاً من أن يمرضوا يوماً أو يموتوا .. وإذا انجبنهم فانهن لا يرغبن فى ارضاعهم ، لئلا يزداد تعلقهن بهم فلا يحتملن فراقهم أو فقدهم ! .. فهن يوازن بين مزايا النسل ومساوئه ، فيخرجن من الموازنة بأن البهجة التى يدخلها على قلبى الوالدين جمال الطفل ، وذراعه الصغيرتان ، وساقاه الدقيقتان ، ولغوه الحلو .. لا توازى اللوعة التى

يقاسينها ، لا بسبب مرض الطفل أو وفاته فقط ، وانما بسبب احتمال ذلك المرض أو تلك الوفاة !!

» وهكذا كانت زوجتى . كان تعلقها بأطفالها ، ومداعبتها اياهم ، وحرصها على حمايتهم ، غريزيا ، كتعلق الحيوان بصغاره !.. ولكنها لم تكن كالحيوان فى انعدام التفكير والخيال من رأسه - وهما المنغصان لحياة الانسان ، والأمهات خاصة - فالدجاجة لا تقاسى هما من ناحية الأمراض التى قد تصيب صغارها ، ولا تعرف شيئا عن وسائل الوقاية التى تحمى صغارها من كل مكروه ، ومن ثم لا تحس خوفا عليها ولا انزعاجا ، وتنعم بها وتستمتع ببهجتها متعة لا يشوبها منغص .. فاذا بدت على أحدها أعراض المرض ، عنيت بتدفئته وتغذيته ، وهذا كل واجبها .. فاذا مات بعد ذلك ، لم تسأل نفسها عن سبب موته والى أين ذهب ، وانما تصيح بضع صيحات ثم تستأنف حياتها المعتادة ، وتنجب نسلا جديدا !

» أما نساؤنا التعسفات ، فالأطفال بالنسبة لهن عذاب مقيم .. فعلاوة على المرض والموت ، يشغلن أنفسهن بألف مسألة ومسألة : باطعام الطفل ، واللباسه ، وكيفية استحمامه ، ومتى يجب أن ينام ، ومتى يتنزه ، ودرجة تهوية غرفته ، ثم تربيته وتعليمه .. ولكل من هذه المشكلات قواعد متناقضة ، يتدخل فيها الأطباء ، والجيران ، والأهل ، والأصدقاء .. وهى قواعد تتغير وتتبدل كل أسبوع ، كأنما الأطفال لم يكونوا يولدون ويكبرون قبل أيامنا هذه !.. أما اذا مرض الطفل يوما ، فهذا هو العذاب الحقيقى والجسيم المقيم .. فانه لن

يشفى الا اذا تولى علاجه الطبيب « فلان » الأخصائى المشهور ، فاذا لم يتيسر استدعاؤه أو كانت الأسرة تقيم فى بلد آخر ، فالويل للطفل .. انه ميت لا محالة !

« هكذا كانت زوجتى - مثل سائر أمهات اليوم - تتأرجح بين طبائع الحيوان والانسان ، فلا تبلغ هذا ولا ذاك ، فلا هى بالأم التى تعالج الأمور فى بساطة بلا تفكير ، كالحيوان .. ولا هى بالأم المؤمنة التى تكل أمرها الى الله ، فتقول كما يقول المؤمنون : « الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركا »

— ٦ —

● « وظلت العلاقة بيننا تتفاقم ، حتى لم يعد العداء بينى وبينها عارضا طارئا ينتج عن اختلاف آرائنا ، بل صار حقيقة متأصلة بسبب ذلك الاختلاف .. فأصبح كل منا يعارض مقدما كل ما يقوله الآخر أو يفعله ! وأذكر أن الآراء التى كنت أتشبه بها وأجعل منها محلا للنزاع لم تكن ذات قيمة فى نظرى لذاتها ، وانما كنت أتمسك بها لأن تسليمى فيها معناه الهزيمة أمام زوجتى والتسليم لها بما تريد ! .. وصرنا حين نجلس معا نلوذ بالصمت ، فلا نتبادل الا العبارات الضرورية شبه الرسمية ، مثل « كم الساعة الآن ؟ » أو « ماذا تأكل اليوم ؟ » أو « ما أنباء اليوم ؟ »

« وهكذا عشنا فى ضباب متصل ، أشبه بسجينين قيد أحدهما الى الآخر بأغلال حديدية قوية ، كلاهما ينفقت الآخر من صميم قلبه ، ويسهم حياة رفيقه ما وسعه الجهد ! ..

وبعد حين ، اقتضت ظروف تعليم الأولاد أن تنتقل الى العاصمة . وفى العواصم الكبرى لا يجد الانسان متسعا من الوقت كى يخلو الى نفسه ، ويتأمل أحواله ، فان وقته كله يضيع فى الانتقال ، والعمل ، والصلات الاجتماعية ، والتردد على الأطباء ومعارض الفن ومدارس الأولاد ، ورد زيارات من يزورونه ، وسماع محاضرات الأعلام ومشاهير الرجال والنساء .. الى آخر تلك الدوامة العجيبة التى تنسى الانسان نفسه ، وهمه . وهكذا قل احنكاكنا وشجارنا .. ومضى شتاء على هذا المنوال . وخلال الشتاء التالى وقعت الملابس التى سأسردها الآن ، والتى تسببت - برغم تفاهتها - فى كل ما تلاها من أحداث جسام !

» .. فقد ضعفت صحة زوجتى ، فأمرها الأطباء بالأبتعاد عن أطفال آخرين .. ورغم معارضتى فى ذلك ، فقد أصرت هى على التزام نصيحتهم ، فقبلت أنا مرغما ، بغير أن اتنازل عن رأيى فى أن منع النسل - بوسائل المدنية الحديثة - جريمة يجب أن ينص عليها فى قانون العقوبات !

» .. وقد قضينا على هذه الحال عامين ، تحسنت فيهما صحة زوجتى وازدادت جمالا واشراقا .. وأدركت هى ذلك ، فبدأت تعنى بنفسها وتتناق ، حتى صار حسنهما متالفا ، يدير رؤوس الرجال ويستثير عواطفهم ! كأن مجرد وقوع بصر أحدهم عليها يريكه ويشيع الاضطراب فى نفسه ! .. صارت أشبه بالحصان الذى أعتق من جر العربات وأجيدت تغذيته ورفع السرج عن ظهره ، فتحرر ، وأزيلت من طريقه جميع العقبات والحوائل ، فتهيأت له الفرصة كى يجمع

ما شاء له هواه !.. وقد أدركت أنا ذلك ، فتوجست منه خيفة وتوقعت شرا .. فان زوجتى كانت ما تزال .. فى الثلاثين !! »

ونھض الرجل من مقعده فى عصبية ، واقترب من النافذة . ثم أشعل سيجارة جذب منها أنفاسا .. وعاد فجلس قبالتى وقد هدأ قليلا ، واستطرد :

« قلت : ان زوجتى حين استراحت من متاعب الحمل والوضع والقلق على الأطفال ، تألقت من جديد وازدادت حسنا وبهاء .. وكأننا أفاقت من دوار الخمور ، فرأت أمامها عالما جميلا حافلا بالمسرات والممذات التى كانت قد نسيتها ، فسألت ولا بد نفسها : « كيف أستغل الفرصة فلا أدعها تفلت منى ؟ .. ان الزمن يجرى ، واللحظة التى تمضى لن تعود ! » .. بل أستطيع أن أتصور أن تفكيرها جرى على هذا النحو : انها قد تزوجت ، لكنها لم تجد فى الزواج أحلامها ، والأمانى التى منوها بها ! وقد تبخرت أكثر آمالها ، وذات مرارة خيبة الأمل فى أكثر من وهم من أوهام صباها .. ثم قاست من الزواج طويلا ، وخاصة من انجاب الأطفال على التوالى ، الأمر الذى مزق روحها شر ممزق .. ولكن ها هى قد قدر لها أخيرا - بفضل تدخل الأطباء - أن تستريح من تلك العبودية نهائيا ، وأن تتذوق ما طالما حلمت به : الحب !.. لكن الحب الذى تريده لا يمكن ممارسته مع زوج استهالكت قلبه عواطف الكراهية المضطربة والغيرة العهياء .. ومن ثم بدأت تصور لنفسها الحب المشتبه فى صورة أخرى ، فراحت تتلفت حوالىها ، كأنما هى تتوقع .. جديدا ! جديدا

ينقذها من أن تقضى بقية حياتها على هذه الوتيرة .. اذ ما معنى أن تضحي بزهرة عمرها من أجل أطفالها ، في حين أنها ما تزال شابة ، وفي وسعها أن تستمتع بالحياة ؟

« وهكذا اشتعل فيها شبابها من جديد .. وفي نوبة من نوبات تحمسها للانطلاق من عزلتها الطويلة ، عاودها شغفها بالعزف على البيانو ، فعكفت على التمرن عليه بعد انقطاعها أعواما ..

« .. وكانت تلك بداية النهاية ! »



● **زهرة أخرى** أدار محدثى بصره الكليل الى النافذة ، كمن يبذل مجهودا للسيطرة على نفسه ، ثم أردف : « وفي تلك المرحلة .. ظهر ذلك الرجل ! »

ثم تردد محدثى برهة ، فأدركت أنه يحاول أن يستحضر في ذهنه صورة غريمه ، وتاريخه معه .. وبعد قليل استطرد : « كان الرجل عازفا على الكمان ، هاويا وليس محترفا ، ينحدر عن أب من أصحاب الأملاك كانت أرضه مجاورة لأرض أبى ، ثم أقلس .. فاضطر أولاده الثلاثة الى شق طريقهم فى الحياة بأيديهم ، وكان هذا الابن — وهو أصغرهم — من نصيب جدته ، فأرسلته الى باريس .. وهناك ظهرت موهبته الموسيقية ، فأدخل معهد الموسيقى « الكونسرفتوار » . وحين تخرج فيه — عازفا على الكمان — عاد فى تلك السنة الى وطنه روسيا ، حيث ظهر فى مجتمعاتها .. ودخل بيتى !

« كانت له عينان جذابتان ، وشفتان باسمتان ، وشارب منتظم صغير .. وكان أنيقا ، مرحا ، وسيم الوجه ، وشيق القوام ، يصف شعره على أحدث طراز ، ويرتدى ثيابا وأربطة عنق تبين عليها مسحة الأناقة الباريسية التى تخطب عقول النساء !

« ذلك هو الرجل الذى كان سبب الكارثة .. لكنى لست حاقدا عليه ، فلو لم يظهر هو لظهر فى حياة زوجتى رجل غيره .. ولقد صور بعضهم مأساتى على أنها نتيجة غيرتى الشديدة المدمرة .. ولكنهم أخطأوا ، فان سبب كل ما حدث هو تلك الهوة الواسعة ، بل الأخدود العميق ، الذى كان يفصل بين طبائعتنا منذ اليوم الأول لزواجنا ، وتلك الكراهية الشديدة المتبادلة بيننا .. وانى لموقن بأن كل الأزواج الذين يعيشون مع زوجاتهم كما كنت أعيش ، لا مفر لهم من اختيار مسلك من أربعة : إما أن يغمضوا أعينهم ، أو ينفصلوا ، أو يقتلوا زوجاتهم ، أو ينتحروا !!

« ولقد فكرت فعلا فى الانتحار مرارا ، وشرعت هى فيه مرة : حدث ذلك قبيل الكارثة بقليل ، وكنا نعيش فى شبه هدنة مؤقتة ، لم يكن ثمة سبب لقطعها .. ولكن فجأة بدأت مناقشة ، لسبب تافه كالعبادة . قلت ان كاتبها قد منح مدالية فى أحد المعارض ، فاعترضت قائلة : « انه لم يمنح مدالية ، بل وساما ! »

« وبدأ بيننا شجار ، تبادلنا فيه أعنف العبارات .. وفى أمثال هذا الموقف يحس المرء بأنه على حافة مشاحنة

حامية ، وان شيئاً يغريه بأن يقتل غريمه ، أو يقتل نفسه ! ..
واذا النار تسرى فى الهشيم ، فيعجز الانسان عن السيطرة
على اعصابه ، ويتملكه الغضب من رأسه الى قدمه ، وتشعر
المرأة بمثل هذا وأسوأ منه ، فتتعمد اساءة فهم كل كلمة ينطق
بها الرجل ، وتأويلها تأويلاً خاطئاً .. وتغمس كل كلمة تتفوه
بها فى سم مركز ، وتضرب على الوتر الذى تعرفه حساساً عند
الرجل !

« وقد كان .. فصحت بها فى صوت كالرعد : « اصمتى ! »
.. فاندفعت هاربة من الغرفة فى طريقها الى حجرة الأطفال
.. لكنى حاولت اعتراض سبيلها كى أقول كل ما عندى
بلا حرج ، وأمسكتها من ذراعها ، فتظاهرت بأنى ألتها ،
وصرخت مستنجدة : « أنظروا يا أولاد : أبوكم يضربنى ! » ..
وبعد مشادة حامية تركتها غاضبا ومضيت الى غرفة المكتبة ،
حيث جلست احرق الارم وأدخن سيجارة ، وأفكر .. فكرت
فى ألف خطة وخطة للانتقام ، وللتخلص منها ، أو الفرار الى
أمريكا والاختفاء عنها ! .. فكرت فى التعرف الى نساء أخريات
وانشاء علاقات جديدة .. فكرت فيما أزمع فعله بعد تخلصى
منها ، بطلاقها ، أو موتها ! ..

« وفيما أنا أفكر ، جاءتنى مربية الأطفال تسألنى متى
تعود سيدتها ، فقد خرجت من البيت على أثر مشادتنا ..
وجاءنى الخادم يسألنى : هل يعد الشاى ؟ .. وعلى مائدة
الشاى نظر الى الأطفال نظرات متسائلة ، حيرى ، صامتة !

« وانقضت الأمسية دون أن يظهر للغائبة أثر ! فتجاذبتنى
فكرتان ، وشعوران : شعور بالحقد عليها ، لأنها حيرتني

وحيرت الأولاد بغيابها ، في حين أنها سوف تعود آخر الأمر ..
وشعور بالخوف من أن لا تعود ، أو أن تقدم على إيذاء نفسها !

« وحلت الساعة الحادية عشرة ، فالثانية عشرة ..
وهي لم تعد ! .. وحاولت أن أشغل نفسي عن التفكير في أمرها
بأى شيء : بكتابة بضعة خطابات .. بالقراءة .. لكنني عجزت
عن أن أفعل شيئا ، فجلست في غرفة المكتبة غاضبا مغيظا ،
أفكر .. وأصغى الى دقائق الساعة .. الثالثة صباحا ،
فالرابعة .. ولا أثر لها ! .. وأخيرا غلبني النعاس قرب
الفجر .. وحين صحت ، لم يكن قد ظهر أى أثر لها بعد !

« وجاءت أختها قبيل الظهر .. جاءت موفدة من قبلها
تقول انها في أسوأ حال ، وتطلب مني أن أجد حلا للموقف ..
فاكدت لها أنني لن أتخذ الخطوة الأولى نحو التفاهم ، وليكن
ما يكون ! .. وذهبت المسكينة بغير أن تصل الى شيء ..
لكنها لم تكذ تذهب ، ولم أكد أرى جزع الأطفال وأساهم ،
حتى وجدتني مستعدا لأن أتخذ الخطوة الأولى ، بل متلهفا
على اتخاذها .. ولكن كيف ؟

« وقرب الساعة الثالثة ، عادت ! .. والتقينا ، لكنها
لم تفه بكلمة .. وحين جاءت مناسبة للحديث ، اشتبكنا في
مناقشة هادئة ، قالت أثناءها انها لم تعد للبيت لتبقى بل
لتأخذ الأطفال وتمضي ، فأننا لم نعد نستطيع العيش تحت
سقف واحد ! .. وتطور النقاش بيننا ، وفجأة صاحت منفعلة
وهرعت الى غرفتها ، ثم أغلقت الباب وراءها وأدارت المفتاح
في القفل ! .. طرقت الباب مرارا ، ولا مجيب .. فلبثت
أنتظر والغضب يهز بدني هذا .. وحين يئست ، تركتها
ومضيت .

« وبعد نصف ساعة جاءتني ابنتي « ليزا » تبكي بحرقة

وتقول ان أمها لا تجيب أى طارق! .. فذهبت مع الصغيرة الى الحجرة واتكأت بظهرى على الباب بكل قوتى ، حتى لأن وانفتح .. فهرعت الى فراشها . كانت ممددة فوقه بشبابها وحذائها ، فى وضع غير مريح ، وعلى المائدة زجاجة « أفيون » فارغة !

« .. وحين عادت بعد جهد الى وعيها ، انهمرت دموعنا وطابت خواطرنا .. لكن قلب كل منا كان عامرا بنفس الحقد الدائم على الآخر ، مضافا اليه شعور جديد بالحنق من أجل الألم الذى سببته المشادة الأخيرة لكلينا ، والذى كان كل منا يلقى مسئوليته على غريمه !



« تلك كانت حالنا حين جاء ذلك الرجل الى موسكو ، وظهر فى حياتنا ! .. كان اسمه « تروخاشنسكى » ، وقد زارنى ذات صباح فى بيتى ، وكانت بيننا فى الماضى البعيد علاقة طيبة ، فاستقبلته مرحبا .. ورغم أن مظهره الجديد لم يعجبنى ، منذ النظرة الأولى ، فان قوة غامضة مدمرة جعلتنى لا أحاول ابعاده عن محيط حياتنا ، بل أسعى على العكس الى تقريبه .. وقد كان كلا الأمرين فى امكانى ! .. فأى شيء كان أبسط من أن اكلمه بفتور بضع دقائق ، وأن أودعه فى نهاية الزيارة بغير أن أقدمه الى زوجتى ؟

« لكنى لم أفعل ، بل جاذبته أطراف الحديث بطلاقة ودية . حدثته بما سمعته عن عزفه ، وسألنى عن هوايتى القديمة للعزف ، فذكرت له أننى هجرتها ، وأن زوجتى هى التى تعزف الآن ببراعة ..

« ثم قدمته الى زوجتى . وفى الحال بدأت بينهما محادثة متشعبة عن الموسيقى ، أبدى لها خلالها طيب استعداده

لتمرينها حتى تبلغ مرحلة الاجادة التامة . وكانت زوجتى فى تلك الساعة - كالعهد بها فى المدة الأخيرة - متألقة فاتنة ، ذات جمال أسر . . وظهر لى بوضوح أنها قد أعجبت به للوهلة الأولى . . بل أكثر من ذلك أنها سرت حين عرض عليها أن يدربها ، وبدا سرورها على وجهها ! . . لكنها - حين التقى بصرها ببصرى - أدركت شعورى بازاء المسألة ، فتغير تعبير وجهها . . وبدأت بيننا مباراة الخداع المعتادة : ابتسمت أنا مظهرا ترحيبى بالاقتراح . . فنظر هو اليها كما ينظر الرجل الداعر الى المرأة الجميلة ، متظاهرا بأن لا شئ يهمه من أمرها غير الموضوع الذى يتكلم بشأنه . . أما هى فحاولت أن تبدو طبيعية ، لكن نظرتة - وابتسامتى الكاذبة التى تنبىء عن غيرتى ، والتى كانت هى تفهم مدلولها جيدا - عكرتا هذوءها !

((واحظت أنه منذ رمقها بنظرتة الأولى تغيرت نظرتها والتهمت عيناها ببريق خاطف ، وكأن تيارا كهربائيا قويا قد سرى بينهما ، فأحدث نوعا من التوافق والانسجام بين نظراتهما ، وابتساماتهما : كانت تحمر وجنتاهما ، فيندفع الدم الى وجهه . . وتبتسم ، فيبتسم . . تحدثا عن الموسيقى ، وعن باريس ، وعن كثير من الموضوعات التافهة . . وأخيرا نهض لينصرف ، فوقف برهة يثرثر باسماء وقبعته فى يده مستندة الى فخذه . . وكان ينظر لحظة اليها ، ولحظة الى . . كأنما ينتظر ما سوف نفعله !

((وبعد ثلاثة أيام ، عدت الى البيت بعد حضورى احد المعارض ، فلم اكد أدخل حتى لمحت معطفه على المشجب فى الردهة . . وكان باب الحجرة التى فيها البيانو مغلقا ، ولكنى استطعت تمييز صوته وصوت زوجتى بين أصوات النقر على البيانو ، وكان واضحا أنهما ينقران خصبيا لاختفاء وطمس معالم كلماتهما ، وربما قبلاتهما ! . . يا الهى ، أية عاصفة ثارت

وقتئذ فى كيانى ! ؟ ان مجرد تذكرى الشعور الوحشى الذى انتابنى فى تلك اللحظات يرعبنى الآن ، فقد بدا قلبى كأنما توقف عن الخفقان ، ثم أخذ ينبض نبضات سريعة عنيفة كدق المطارق الثقيلة .. فتقدمت نحو الباب .. وفتحته !

« كان هو جالسا الى البيانو يداعب أصابعه بتلك النقرات الخفيفة ، وهى واقفة بقربه متكئة الى ظهر البيانو . وراتنى هى أولا ، فنظرت الى .. ولست أدري أكانت قد فوجئت فمظاهرت بأنها لم تفاجأ ، أم أنها لم تفاجأ حقيقة .. على أية حال فإنها لم تظهر أى اضطراب ، ولا تحركت .. وانما اكتفت بالقول فى لهجة لطيفة لم أعتدها منها : « كم يسرنى أنك جئت ، فنحن فى حيرة بشأن اختيار القطع التى سوف نعرفها يوم الأحد » !.. واثارنى قولها « نحن » ، لكنى كتمت غيظى وانحنيت للرجل فى صمت وأنا أصافحه ، فضغط على يدى وجعل يستشيرنى فى أمر الألحان المطلوبة .. وبالرغم من أن كل ذلك كان طبيعيا ومعقولا ، بحيث يصعب ايجاد مأخذ فى شأنه ، فقد كنت واثقا من أن روايتهما كاذبة ، وأنهذا كانا يدبران خطة لخداعى !

« وطيلة ذلك اليوم لم أحدثها فى شىء ، فقد كان قلبى عامرا بالحقدها عليها ، الى درجة خشيت معها على نفسى !.. وعلى مائدة الغداء ، سألتنى عن موعد رحيلى الى بلدتى لحضور دورة انعقاد المجلس المحلى - كما كنت قد أنبأتها من قبل - فأجبتها بأنى سوف أسافر فى الأسبوع التالى .. ثم قضينا وقت الغداء صامتين . وبعد الفراغ منه مضيت الى غرفة المكتبة دون أن أنطق بحرف .. وكانت هى قد

انقطعت فى المدة الأخيرة عن الدخول على فى تلك الغرفة ، حين كنت أخلو الى نفسى .. لكننى سمعت خطواتها تقترب ، واذ ذاك وثب الى رأسى فجأة خاطر مروع : خيل الى أنها - مثل زوجة ((أوريا الحشى)) التى حدثتنا عنها التوراة - قد ارتكبت المعصية فعلا وجاءت تتمسح فى زوجها كى تخفى زلتها ! .. وفتح الباب ، وبرزت خلاله بقوامها الفارع الأنيق ، وعلى وجهها وفى عينيها مسحة من الخجل ، والرغبة فى المصالحة ! .. فقويت شكوكى ، واحتبست أنفاسى من فرط رغبتى فى قمع غيظى ، ولم أجد بدا من اشعال سيجارة لتهدة نفسى .. فقالت وهى تجلس الى جوارى على الأريكة : « أيلق أن آتى لأجلس معك كى نتحدث ، فتهرب من الحديث بتدخين سيجارة !؟ » .. والتصقت بى ملاطفة ، فابتعدت عنها متأففا .. ثم بدأ الشجار المألوف ، وحمى وطيسه .. حتى قالت لى : « لقد أصبحت حقار جدا لا يطاق .. حتى الملائكة لا يمكن أن تحتمل تصرفاتك ! » .. واذ ذاك تملكنى حقد هائل عليها بشكل لم أعده فى نفسى من قبل ، ولأول مرة أحسست بدافع يفرينى بأن أعبر عن ذلك الحق بالقدوة الجسمانية ، فوثبت من مقعدى وتقدمت نحوها وأنا أزمع اربابها .. وغلى مرجل غضبى فصحت فيها بأعلى صوتى : « اخرجى من هنا .. والا قتلتك ! » .. وأمسكتها من ذراعها ، ولابد أن هيئتى كانت رهيبة ، فقد تولاهما الخوف الى درجة أعجزتها عن الخروج أو التحرك من مكانها ، وانما اكتفت بأن تقول : « فاسيا .. ماذا بك ؟ »

« .. فصحت بصوت أعلى وأعنف : « قلت لك اذهبى ! .. »

ما من أحد سواك يستطيع أن يخرجنى عن طورى .. وعندئذ لن أكون مسئولا عما قد أفعل !» . وشعرت بميل شديد الى قتلها ، لكنى تماسكت .. وأردت أن أشفى غليلى بتحطيم شىء ما ، أى شىء ، فتناولت أداة ضغط الورق الثقيلة من فوق المكتب وضربت بها الأرض ، بجوارها ، وأنا أصيح صارخا : « أخرجى ولا ترينى وجهك ، والا فلست مسئولا عما قد أفعل ! » .. وقذفت ببقية أدوات المكتب على الأرض فى عنف .. فخرجت تعدو من الغرفة مذعورة !

((وبعد ساعة جاءتنى المربية تقول : ان زوجتى مصابة بنوبة عصبية .. فذهبت اليها ، ووجدتها تبكى وتضحك وهى ترتجف بشدة ! .. ولم يعاودها هدوؤها الا فى صباح اليوم التالى حين تهادنا من جديد ، بتأثير نوبة من نوبات ما يمكن أن نسويه بالحب أو ((الشوق)) الزوجى ! .. وحين هدأت ، اعترفت لها بأننى أغار من عازف الكمان ! لكنها لم تضطرب أو ترتبك ، بل ضحكت ضحكة طبيعية هادئة وقالت لى : « امن المعقول أن تحس اية امرأة محترمة نحو رجل كهذا بغير الاعجاب الفنى بموسيقاه ؟ .. ولكن اذا أردت غانا على استعداد للكف عن استقباله فى بيتنا بعد الآن . أما حفلة يوم الأحد فيمكنك الفاؤها والاعتذار الى المدعويين منذ اليوم بزعم أنى مريضة مثلا ، ولئن كان هناك ما يضايقنى فى ذلك ، فهو أنى أخشى أن يتوهم الرجل من هذا التصرف انه خطر الى هذا الحد واننا نخشاه ، فانى ضئيلة بكرامتى أن تشوبها شائبة كهذه .. »

((واعتقد انها كانت مخلصه فى كلامها ، وانها كانت تقصد

به أن تثير عباراتها فى نفسها موجة من الاحتقار للرجل ، تحميها من سلطانه عليها ! .. لكنها لم تنجح فى محاولتها ، وجرى التيار على غير ما أرادت ..



◉ « وحل يوم الأحد .. وفى بداية الحفلة لم أسمح لنفسى بأن أغار من الرجل ، لكنى برغم ذلك لم أكن مستريحا ناعم البال .. فجعلت أرقب حركاته وحركات زوجتى ، وأحصى عليهما نظراتهما طيلة الوقت .. حتى بدأ العزف فأسمعانا مقطوعة بيتهوفن المسماة « لحن الى كرويتزر » ، وهى مقطوعة رهيبة فى نظرى . يقولون أن الموسيقى تسمو بالروح ، وهذا هراء وتخريف ، فهى لا تسمو ولا تنحط بالروح .. وإنما هى تثير ! .. ان الموسيقى فى خطر ، وهى فى الصين تخضع لسيطرة الحكومة واشرافها ، وهذا ما يجب أن تفعله بقية الحكومات !

» ونجحت السهرة نجاحا عظيما ، وبعد أن انصرف المدعوون تقدم منى « تروخاشفسكى » مصافحا ومودعا ، وكان قد علم منى أننى اعتزم السفر الى بلدتى بعد يومين ، وكان هو بدوره ينوى القيام برحلة الى الخارج ، فقال انه يأمل أن تتاح له ليلة شائقة كهذه حين أعود الى موسكو .. ووقعت عبارته على قلبى بردا وسلاما ، فقد فهمت منها انه لا يفكر فى إمكان التردد على بيتى فى فترة غيابى .. ولأول مرة صافحته مصافحة ودية من صميم قلبى ، وشكرته على احياء الحفلة بموسيقاه الجميلة .. ثم ودع زوجتى وداعا نهائيا ، بدا لى طبيعيا للغاية ، وغير متكلف .. وانتهت السهرة عند هذا الحد ، والعلاقة بينى وبين زوجتى على خير ما يرام !

— ٨ —

ج « .. وبعد يومين غادرت موسكو ، أهدأ ما أكون بالا
وأُسعد حالا منى فى أى وقت مضى منذ زواجنا .. وحين
بلغت بلدتى وجدت فى انتظارى مهام شاقة وعملا متراكما
يقتضىنى البقاء فى مكتبى عشر ساعات كل يوم ، فلبثت يومين
على هذا المنوال .. وفى اليوم الثالث تلقيت خطابا من زوجتى
تتحدث فيه عن الأطفال ، وعن عمها ، وعن المريضة ، وعن
الأشياء التى اشترتها .. ثم ذكرت على هامش الخطاب أن
« تروخاشفسكى » قد زارها وأحضر المقطوعات الموسيقية
التي كان قد وعد بها ، وأبدى استعداده لأن يعزفها
بمصاحبتها ، لكنها اعتذرت بلباقة .. !

« لم أكن أذكر أن الرجل كان قد وعد باحضار مقطوعات ،
بل تذكرت جيدا أنه ودعنا باعتبار أنه لن يعود فى القريب ..
ومن ثم كان لتلك العبارة التى وردت فى خطاب زوجتى أسوأ
الأثر فى نفسى ، لكن مشاغلى حالت بينى وبين التوقف عن
العمل للتفكير فى مدلولها ، حتى عدت الى غرفتى فى المساء
فأعدت قراءة الرسالة . بدت لى لهجتها فيها غير طبيعية ،
علاوة على ما حملته من نبأ تردد « تروخاشفسكى » على البيت
أثناء غيابى ! .. فاستيقظ وحش الغيرة المخيف فى أعماقى
وشرع يزأر فى قفصه ، محاولا أن ينطلق .. لكنى كنت أخشى
بأسه فسارعت الى اعتقاله ، قائلا لنفسى : « ما أشنع هذه
الغيرة .. ان كل ما فى الخطاب طبعى ، ففيم كل هذا ؟ » ..
وتمددت على فراشى ، وشرعت أفكر فى عمل اليوم التالى ..
ومن عادتى الا أنام بسهولة حين لا أكون فى غرفتى المألوفة ،
لكنى فى هذه المرة أغفيت من فورى ..

« وفجأة صحت على احساس يشبه لسعة كهربائية !
صحت وأنا أفكر فى زوجتى وفى « تروخاشفسكى » ، وفى

أنهما قد انتهزا فرصة غيابى فعائنا فى البيت فسادا !.. فسحق الرعب والفضب قلبى .. لكنى ما عتمت أن هدهدت هواجسى ، قائلا فى سرى : « أى سخف هذا الذى يخطر لى ؟ ! .. ما من أساس واحد لهذه الشكوك التى تعذبنى .. فكيف أهين زوجتى وأهين نفسى بالتفكير فى شئ من ذلك ؟ .. ثم هل يعقل أن سيدة محترمة ، ربة أسرة وأم أطفال ، كزوجتى ، تقع فجأة فريسة لرجل كهذا ذى سمعة غير حميدة ؟ .. أى هراء ! ؟ »

« ومع ذلك فقد جن جنونى : كيف تركتها وجئت الى هذه البقعة ؟ !.. ألم يكن واضحا منذ سهرة الأحد أنهما قد اتخذتا فى تلك الليلة الخطوة الأخيرة نحو التفاهم ؟ .. وأن سفرى قد أزال كل حاجز يقف بينهما ؟ .. وتذكرت حركاتهما وسكناتهما طيلة التحفلة .. كيف حرص كلاهما على تجنب النظر الى الآخر ما استطاع ، وكيف جلسا متجاورين على مائدة العشاء ، وكيف صب لها الماء فى قدها فنظرت اليه وابتسمت ابتسامة يشوبها الخجل .. الخجل مم ؟ لا شك أن سرا بينهما هو الذى جعلها تخجل .. واستبد بى رعب هائل ، وهمس صوت فى داخلى : « نعم ، ان الخطوة الأخيرة من جانبهما قد اتخذت ! » .. لكن صوتا مضادا انبرى للأول يسفهه : « انك مجنون .. هذا غير معقول ! »

« وأرهقتنى الوحدة فى الظلام ، فأشعلت ثقابا ، واذا ذاك شعرت بالرعب من البقاء فى تلك الغرفة الصغيرة ، بجدرانها المكسوة بالورق الأصفر ، فبدات أدخن .. سيجارة بعد سيجارة ، كى أخمد بالدخان والضباب قوى عقلى وأخنق أفكارى .. ولم أتم طيلة تلك الليلة . وقرب الفجر كان قد صح عزمى على الفرار من هواجسى بمبارحة البلدة فى الحال .. عائدا الى موسكو !

« وفى منتصف الطريق انكسر شيء فى العرببة اضطرنا الى الانتظار حتى تم اصلاحه ، لكن ذلك كلفنى كثيرا .. فقد تسبب فى عدم لحاقى بقطار موسكو السريع ، الذى يبلغها فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، والزمنى أن أسافر بالقطار التالى الذى يصل فى منتصف الليل !

« وكانت المسافة التى علينا أن نقطعها بالعرببة خمسة وثلاثين فرسخا ، تليها رحلة بالقطار تستغرق ثماني ساعات .. وقد استمتعت برحلة العرببة متعة كاملة : فقد كانت الجياد سريعة ، والطريق معبدا ، والضباب خفيفا ، والقمر ساطعا .. فنسيت كل شيء عما قد ينتظرني فى موسكو .. أو لعلنى كنت أعرف ما ينتظرني ، فأردت أن أتذوق أقصى ما يمكن تذوقه من مباحج الحياة !

« لكن سكينه خاطرى زالت بمجرد انتهاء رحلتى بالعرببة ووضع قدمي فى القطار .. فقاسيت خلال السلالم الثماني - التى استغرقها السفر بالقطار - أشجع صور الآلام النفسية ، مما لن أنساه ما حييت .. ولعل السبب كان شعورى ، وأنا أتخذ مقعدى فيه ، اننى قد اقتربت من نهاية الرحلة ، وصرت أمام « الكارثة » وجها لوجه ! .. وهكذا فقدت من قوى سيطرتى على خيالى ، فجمع بى بكل عنفوانه ، وشرع يستعرض لى صورا متعاقبة تشير غيبتى .. وكانت كلها تدور حول محور واحد : ما حدث خلال غيبتى ، وكيف انتهزت اللبنة الفرصة فخانتنى ! .. وهكذا تملكتنى مجموعة من مشاعر الغضب ، والحقد ، والمذلة !

« وكانت عرببة القطار قد خلت الامنى ، فزادتنى الوحدة ثورة وهياجاً .. صرت كالوحش فى القفص ، أقفز من مقعدى الى النافذة ، ثم أعود منتقلا الى مقعد آخر ، كأنما أحاول بذلك أن أجعل القطار يزيد من سرعته ! .. وأخيرا قلت لنفسي :

« يجب أن أفكر فى شىء آخر .. فى صاحب الحانة التى تناولت فيها الشاى أثناء المرحلة الأولى من رحلتى .. ان له حفيدا فى سن ابنى « فاسيا » . وللحال وجدتنى أفكر فى « فاسيا » .. يا للصبى النفس ، انه لا شك قد رأى غريبا يقبل أمه ! ترى أى أثر يتركه هذا المشهد فى نفسيته الغضة ! .. ولكن ماذا يهمها من ذلك ؟ .. يكفيها أنها عاشقة !

« ومن جديد عادت الأفكار تتجاذبنى ، فقايسيت عذابا مروعا . وكان أظلع ما عذبنى جهلى بحقيقة ما عساه قد حدث ، وشكى فيه وفى مداه ، وحررتى بين حبى وكراهيتى لزوجتى ! .. حتى بلغ بى الأمر مرحلة التفكير فى وضع حد لالامى ، وراودتنى نفسى جديا على القفز من نافذة القطار .. فان ذلك كفيل على الأقل بأراحتى من شكوكى . ولكن ، هل أنهى حياتى وأتركها هى تمرح على هداها ؟ مستحيل ! .. بل يجب أن أفعل شيئا يجعلها تتألم ، كى تقدر كم تألمت !

— ٩ —

« « وأخيرا وصل القطار ، بعد منتصف الليل ، فهبطت منه وفكأى يرتعشان ، وأسنانى تصطك من شدة انفعالى ! .. وبحركة آلية تبعث جموع الخارجين من المحطة حتى موقف العربات ، حيث اتخذت مقعدى فى أحداها ، وأمرت الحوذى بالمسير .. وأمام باب البيت نقدته أجره وهبطت !

« وكان النور مضاء فى غرفة الاستقبال ، رغم أن الساعة بلغت الواحدة صباحا ! .. لكننى لم أحاول تفسير هذه الظاهرة ، فقد كنت واثقا مما هنالك .. قصصت السلام بخطى سريعة ، وفتحت الباب فى خفة .. وكان أول ما لفت نظرى فوق الشماعة التى فى الردهة : معطفه !

« كان يجب أن أفاجأ وأدهش .. لكننى لم أفعل .. وإنما

قلت لنفسى فى هدوء : « هذا ما توقعته » .. لكن انفعالى
عاودنى فى الحال فأحسست كأنى أختنق ، ولم أستطع قمع
رعشة فكى الأسفل ، بل كدت أشهق بالبكاء .. لولا أن صاح
بى صوت خفى يحذرنى : « لا تكن عاطفياً ولا تذرف دموعك ،
لئلا يحسبك فيتخذك اهبتهم لدخولك ، وبذلك تضع
عليك فرصة اثبات جريمتهم ، وتعيش فى جحيم الشك
والحيرة الى الأبد ! »

« وبلغت سمعى أصوات مختلفة : صواتهما ، وصوت
الأطباق والسكاكين . انهما يتناولان عشاءهما آمنين ، ولم
يحسبا بدخولى ! .. واذن فلأتصرف سريعاً وفى حزم ..
ولكن ، ماذا أفعل ؟ كيف أعاقبهما وأضع حداً لصلتى بها ؟ ..
يا للغاجرة ، ان خاوتها به فى بيتها ، وفى منتصف الليل ، بغير
مراعاة للمربية والأطفال الذين فى الحجرات المجاورة ، لدليل
على مبلغ استهتارها وجرأتها ، بل وقاحتها ! .. ولكن لعلها
أرادت أن تجعل من تلك الجراة الوقحة برهانا على براءة
خلوتهم فى نظر الأطفال ! .. أما بالنسبة لى فكل شئ واضح
أكيد .. كل ما خشيته ، أن يستطيعا التملص من التهمة
بالتذرع بمبرر قوى معقول لموقفهما ، يحرمنى من راحة
اليقين والاعتناع باثمهما .. ويجردنى من سلاح اثباته
بالبرهان الصريح !

« وهكذا رأيت أن أبادر بالتصرف : فتسللت الى حجرة
الأطفال ، حيث وجدتهم مستغرقين فى النعاس ، لكن دخولى
أوشك أن يوقظ المربية .. وأثار هذا الاحتمال فى شعور
الرتاء لنفسى ، والحسرة على موقفى الذليل .. فتبادرت
بالفرار على أطراف أصابعى الى الممر ، ومنه الى غرفتى ،
حيث ارتميت على فراشى ، وأطلقت لنشيجى ودموعى العنان
.. وفى رأسى دارت هذه الخواطر : « أهذا مصرى ، أنا
الرجل الأبى ، سليل أسرته العريقة .. أنا الذى طالما حلم

بهجة السعادة البيتية .. أنا الزوج الذى لم يفرط لحظة في إخلاصه لزوجته .. أن أتكب بزوجة ، أم خمسة أطفال ، تعشق رجلا غريبا لأن له شفتين حمراوين ؟ ! كلا ، انها ليست آدمية ، انها حشرة دنيئة .. ومن يدري ، لعل هذا كان يحدث منذ بعيد ، ولعل واحدا من اطفالى الذين أعتز بأبوتهم ، منحدر من غير دمي ؟ ! »

وكان أول ما فعلته أن خلعت حذائى ثم تلصصت الى الغرفة المجاورة ، حيث كانت مجموعة من الأسلحة المختلفة والخناجر معلقة على الجدار ، فاستلكت خنجرا دمشقيا حادا من غمده ، ثم تسللت على أطراف أصابعى نحو باب غرفة الاستقبال ، حيث كانا .. وفتحت الباب !

« لن أنسى التعبير الذى ارتسم على وجهيهما حين راينى ! لن أنساه لأنه أمدنى بشعور من الغبطة الضارية ، فقد كان تعبيرنا ناطقا بالرعب ، والفرع ، واليأس .. وهذا ما كنت بحاجة اليه ! .. كان هو فيما يبدو جالسا الى المائدة ، فلما فوجيء برؤيتى قفز واقفا على قدميه بغير وعى والرعب في عينيه .. أما هى فاختلط الرعب على محياها بتعبير آخر ، تعبير لو لم أطلعه على وجهها فربما ما كان ليحدث ما حدث ! .. كانت في عينيه نظرة تنم عن الغيظ ، والضيق ، والحنق على ، لأنى بدخولى قطعت عليها متعة خلوتها بحبيبها .. وبدا كأنها لا تتمنى أكثر من تركها بغير ازعاج في هوائها الحاضر ! »

« وقفت على عتبة الباب لحظة ، مخفيا الخنجر وراء ظهري . وخلال تلك اللحظة ابتسم هو .. ثم قال بصوت متخاذل : « كنا نتمرن على عزف بعض الألحان معا » .. بينما قالت هى بنفس اللهجة : « اننى لم أكن أنتظرك الليلة .. »

« لكن احدا منهما لم يتم عبارته ، فقد عاودنى ذلك الميل الجنونى الى التحطيم والتدمير ، واستعمال العنف ، فانسقت

فى تياره واستسلمت له !.. وقبل أن يزيد أحدهما حرفا القيت بنفسى عليها ، وأنا ما أزال أخفى الخنجر وراء ظهرى ، لكن الوغد تبين نيتى ، فأمسك بذراعى صائحا : « فكر فيما أنت مقدم عليه .. النجدة ! » لكنى استطعت تحرير ذراعى من قبضته ، وبغير أن أنطق بكلمة اندفعت نحوه هو .. والتقت أعيننا ، فشحب وجهه كالأموات ، بما فى ذلك شفتاه ، ولملت عيناه ببريق غريب ، ثم - على غير انتظار منى - انحنى بجذعه فجأة ومرق من تحت البياض ، ثم من الباب .. لا إذا بالفرار !.. وفيما أنا أهم باللاحاق به ، شعرت بثقل على ذراعى اليسرى يعوقنى عن الاطلاق فى أثره .. وكانت هى !.. لكنى همت بمحاولة أخرى للتخلص منها ، واذا ذاك تعلقت بكل ثقلها بذراعى واستدمات فى التشبث بها .. فألهب تصرفها غضبى ، وأمدنى بعنف جبار .. وبحركة مفاجئة سحبت ذراعى من قبضتها ولكمت بمرققى وجهها بكل قوتى .. فصرخت من الألم وأطلقت برغمها ذراعى ، فتاهت لمطاردة الرجل .. لكنى تنبعت فورا الى أنه من السخف المزرى أن يطارد زوج عشيق زوجته وهو متجرد من حذائيه .. فعدلت عن اللحاق به ، واستندرت اليها هى !

« كانت قد تهالكت على أريكة ، وفى عينيها نظرات الهلع والمقت الشديد لى ، نظرات الفأر حين تنطبق عليه المصيدة ! .. لكنى برغم ذلك كنت خليقا بأن أتمالك نفسى فلا أفعل ما فعلت ، لو أنها فقط صانت لسانها .. لكنها بدأت تتكلم وهى قابضة على يدى التى فيها الخنجر : « عد الى صوابك . ماذا أنت فاعل ؟ ماذا دهالك ، أقسم لك أنه لم يحدث شيء ! » واثارتنى عبارتها ، واستنتجت منها عكسها بالضبط ! استنتجت أن أسوأ مخاوفى قد تحققت .. فراودنى ميل الى الرد على كلامها ، ردا يناسب المقام ، والحالة النفسية الفظيعة التى كنت فيها .. أوليس للانفعال أيضا منطق وقانونه ؟..

فصحت بها وأنا أقبض على ذراعها : « كفاك كذبا أيتها الملعونة ! » .. لكنها تخلصت من قبضتى ، فلحقت بها وأمسكتها من رقبته ، ثم دفعتها الى الخلف وأنا أشدد الضغط ، محاولا خنقها !

« يا لقوة عضلاتها ! لقد قاومت حتى أطلقت يديها ، فجذبت بهما يدي من حول رقبته .. وفى تلك اللحظة شعرت أن الفرصة التى انتظرتها قد واثمتى .. فغرست الخنجر فى ضلوعها !

« يقول البعض أحيانا أنهم قد ارتكبوا ما ارتكبوا » فى نوبة جنونية » ، بغير أن يشعروا ! لكن هذا كذب .. فلقد شعرت ، وما زلت أذكر ، كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل ذلك الحادث ، بحيث أستطيع أن أجزم بأنى لم أغب لحظة واحدة عن صوابى وادراكى ! .. أدركت اننى كنت أغرس خنجري فى ضلوعها ، واننى بذلك قد ارتكبت أمرا فظيعا - لم ارتكبه من قبل - وأن له عواقب وخيمة ! لكن صورة هذه العواقب تمثلت فى خاطرى كالبرق ، دون أن تشيننى عن عزمى ، ثم تبعها فورا تنفيذى لفعلتى ! .. وخلال تلك اللحظات الخاطفة التى استغرقها التنفيذ ، شعرت بكل مراحل بوضوح : شعرت بمقاومة مشد صدرها السميك للسلاح ، ثم بانغراس حد الخنجر الماضى فى لحمها الطرى .. وأخيرا بمحاولتها القبض على الخنجر بكلتا يديها ، لاعاقته عن التوغل فى جسمها .. كما شعرت بتمزق راحتها من جراء هذه المحاولة الفاشلة !

« لكن جراتى تلك لم تدم أكثر من لحظات ، أدركت بعدها اننى أقتل امرأة ، وامرأة عزلاء ، هى زوجتى ! .. فهلا انى هذا الادراك رعبا ، وبأدركت باستلال الخنجر من جسمها ، وبى رغبة غامضة فى مداواة الطعنة التى طعنتها ! .. ثم وقفت لحظة جامدا بلا حراك ، بينما وثبت هى واقفة على قدميها وصاحت فى حشجة ، تنادى المربية : « اغيثنى .. لقد قتلتى ! »

« وكانت المربية قد سمعت الجلبة فجاءت على صداها ترى جلية الأمر .. وحين بلغت عتبة الباب ، كان الدم ينبثق من الجرح ، واذ ذاك فقط أيقنت أنا أن أوان اصلاح ما وقع قد فات ! لكنى لم أستشعر ندما ، بل قلت لنفسى ان ما فعلته كان يجب أن يحدث . وحين بلغت المربية مكاننا كانت زوجتى قد خرت صريعة على الأرض ، فانحنيت عليها وهى تهتف مدعورة : « يا للسماء ! » .. وعندئذ ألقيت بالخنجر على الأرض وبارحت الغرفة ، وأنا أسأل نفسى على الفور : « ماذا أفعل الآن ؟ » .. وللحال عقدت عزمى على شىء ، فتوجهت الى غرفة المكتبة ، حيث أخرجت مسدسى ، وكان معبأ ، ثم جلست على مقعد وجعلت أفكر .. وبعد حين ناديت خادمنى وكلفته باستدعاء البوليس ، ثم أغلقت الباب على ، وأخرجت علبة سجائرى وثقابى وشرعت أدخن . وقبل أن أفرغ من سيجارتى ثقلت أجفانى .. وتبينت بعد يقطتى اننى نمت حوالى ساعتين ، حلمت أثناءهما اننى تشاجرت مع زوجتى ، لكن خلافا لم يلبث أن سوى على خير حل .. وعند هذا الحد من الحلم أيقظنى طرق على الباب ، فقلت لنفسى : « لا شك أنهم رجال البوليس ، اذ يبدو انى قتلتها ! »

« وتكرر الطرق على الباب ، فلم أجب ، بل ركزت همى فى محاولة الاجابة عن هذا السؤال : « أحقا حدث ذلك ، أم اننى واهم ؟ » وأجبت نفسى : « بل حدث فعلا ! » .. وتذكرت مقاومة مشد الصدر لتوغل الخنجر ، ثم انفراس السلاح فى اللحم .. ومرت بسلسلة ظهري قشعريرة باردة .. « نعم ، لقد وقع ذلك حقيقة .. والآن جاء دورى كى أقتل نفسى .. ولكن ، لماذا أقتل نفسى ؟ »

« .. وقبل أن أجيب نفسى عن تساؤلها ، تجدد الطرق على الباب .. فأرجأت التفكير فى الأمر حتى أعرف أولا من

الطارق ، ووضعت المسدس جانبا وغطيته باحدى الصحف .. ثم قمت ففتحت الباب ..

« كانت الطارقة أخت زوجتى ، وهى أرملة حمقاء ، لم تكذب ترانى حتى ابتدرتنى : « فاسيا ، ماذا فعلت ؟ » .. وانهمرت دموعها المطواعة ، ثم استطردت : « انها تحتضر .. كذلك قرر الدكتور ايفان .. »

« قلت : « أهو قد حضر ؟ »

« قالت : « نعم ، بربك اذهب اليها يا فاسيا . يا للفضاعة ! »

« ترددت لحظة ، وانا أفكر فيما كنت قد اعتزمته من وضع حد لحياتى .. ثم تبعتها .. وفيما أنا أعبر الممر المؤدى الى غرفة الجريشة ، عاودنى الأمل فى أن يكون كل ذلك محض كابوس ! لكن رائحة اليود والمطهرات الطبية التى ملأت خياشيمى بددت هذا الأمل ! .. والتقيت فى طريقى بابنتى « ليزا » ، فنظرت الى بعينين فزعتين .. ثم بلغت باب الغرفة ، ففتحته ودخلت ..

« كان أول ما وقع عليه بصرى فى الغرفة - فوق أحد المقاعد - ثوب زوجتى الرمادى الذى كانت ترتديه ، ملطخا بالدم .. ثم رأيتها هى ، راقدة على فراشنا المشترك ، وركبتها مرفوعتان ، وجسدها كله قد أسند على عدد من الوسائد .. وكان الجرح مفتى بضمادات تفوح منها رائحة العقاقير الجراحية الثقيلة .. وراعى من الجريشة وجهها المحنق ، الضارب الى الزرقة ، ورقعة من السواد تقع فى طرف أنفها وتحت عينيها ، أدركت أنها تخلفت عن لکمتى اياها بمرفقى ، حين كانت تحاول أن تعوقنى عن اللحاق بعشيقها ! .. اما جمالها فلم أقف له على اثر ، من فرط الاعياء الذى حل بها ، والدم الذى نرفته ..

« وقفت على عتبة الباب مترددا ، أتأملها فى سكون .. لكن اختها أهابت بى مشجعة : « تقدم نحوها ! » .. فقلت

نفسى : « نعم فلاذهب .. اذ ربما تريد أن تعترف لى باثمها .. فهل أصفح عنها ؟ .. نعم ، فهى تحتضر ، ومن اللياقة أن أمنحها الغفران .. »

« واقتربت منها .. فرفعت عينيها الى بصعوبة ، ثم قالت بعد جهد ، وفى لهجة متقطعة : « لقد قتلتنى .. » .. وفى عينيها اللتين خيمت عليهما علائم الألم القاسى ، والدنو من الموت ، طالعت ظل ذلك المقت الشديد لى ! .. وبعد لحظات ، استطردت تقول : « لكن الأطفال على أية حال .. لن يبقوا معك .. بل ستأخذهم أختى » .

« ثم صمتت ، فلم تعرض بكلمة للموضوع الجوهري الذى يهمنى قبل غيره .. موضوع خيانتها واثمها الفظيع ! .. وبعد برهة حانت منها نظرة الى الباب ، حيث وقفت أختها وبجوارها الأطفال ، فشهقت باكية وغمغمت : « فلتنعم بما جنت يداك .. او اه ، ماذا فعلت بى ؟ »

« نظرت الى الأطفال ، والى وجهها الذى يضمحل .. ولأول مرة نسيت نفسى ، وحقوقى ، وكرامتى .. ولأول مرة تيمنت فى زوجتى مخلوقا بشريا ، فكبرت جريمتى فى عيني ، ونازعتنى نفسى بقوة الى أن أنحنى على يديها وأسألها الصفح .. لولا اننى جنت ، وخذلتنى شجاعتى !

« اما هى فظلت صامتة ، مغمضة العينين ، بادية الضعف والذبول .. ثم فتحت عينيها ، وتغضن جبينها وهى تشير الى بالفروب عن وجهها ، قائلة : « لماذا فعلت هذا ؟ » .. فصحت مستغفرا : « اغفرى لى ! » .. واذا ذاك تحاملت على نفسها ، ورفعت جذعها عن الوسائد قليلا ، ثم صاحت وهى تحدجنى بنظرات محمومة : « أغفر ؟ أى هراء .. ؟ لو أمكن فقط أن أعيش ! لقد نفدت ارادتك .. انى أكرهك .. أكرهك ! »

... ثم تدهلكها الهذيان فصاحت فزعة : « اطلق النار ،
فلمست بخائفة .. ولكن اقتلنا جميعا .. انه قد ذهب .. انه
قد ذهب ! »
« وظلت تهذى الى النهاية ، فلم تتعرف على أحد ..
وماتت عند الظهر ! »

● ●
« .. ثم ألقى القبض على ، وأودعت السجن .. وفى اليوم
الثالث أخذونى الى البيت كى أراها لآخر مرة ، فى نعشها ! ..
وعندئذ ، حين رأيت وجهها الميت وجسدها المسجى ، أدركت
لأول مرة فظاعة ما اقترفت ! .. أدركت أننى قتلتها حقا ..
واننى وحدى الذى استل الحياة من جسدها الدافئ المتوثب ،
وأحالتها جثة كالشمع ، باردة ، بلا حراك ! .. كما أدركت أنه
ما من سبيل الى اصلاح ما وقع واعادة التمسكة الى الحياة !
ان من لم يجرب هذا الموقف لا يمكنه قط أن يقدر هوله
وبشاعته ! »

وأجهش محدثى بالبكاء ، بحرقة تسكتد الرثاء ..
وأخذ جسده كله ينتفض كالمحموم ، من شدة الانفعال .. ثم
هذا تدريجا ، وبقي صامتا فترة .. قال بعدها : « وبقيت فى
السجن أحد عشر شهرا ، فى انتظار المحاكمة .. ثم يرأونى ،
بحجة أننى قتلتها دفاعا عن شرفى ! .. وهانذا أمضى الى بيتى
الصغير فى الريف ، كى أقضى فيه ما تبقى من عمرى ، وحيدا
.. فقد حرمنى اطفالى الخمسة ، بزعم أنى لا أصلح لتربيتهم
بحكم كونى .. قاتلا ! »

وارتسمت على فم محدثى ابتسامة سخرية مريرة ، ثم
لاذ بالصمت ، وشرد بصره الى بعيد .. كمن يرصد نجمة فى
افق سحيق .. مجهول !

مطبوعات كتابي

صدر من هذه المجموعة حتى الآن :

المؤلف	الكتاب
تشارلز ديكنز	١ - قصة مدينتين
ويلكى كولينز	٢ - ذات الثوب الأبيض
ديل كارنيجي	٣ - الخالدون
سومرست موم	٤ - الخاطئة
جى دى موباسان	٥ ، ٦ - حياة امرأة (جزءان)
البرتو مورافيا	٧ - الخطيئة الأولى ، وقتاة من الاقليم
سوفوكليس ، واندرية جيد	٨ - اوديب (ترجمة الدكتور طه حسين)
جوستاف فلوبر	٩ ، ١٠ - مدام بوفاري (جزءان)
ستيفان زفايج	١١ - عاشقات في الخريف ، و ٢٤ ساعة في حياة امرأة
رابندرانات طاغور	١٢ - قلوب ضالة
بوكاشيو	١٣ - ديكاميرون (ألف ليلة وليلة الايطالية)
ميكا والتارى	١٤ - الظما للحب (قصة فنلندية)
شارلوت برونتي	١٥ الى ١٧ - جين اير (٣ اجزاء)
مارجورى كورجين	١٨ - فانتازات الرجال
مكسيم جوركى	١٩ - رجال ونساء
جون شتاينبك	٢٠ - الثار للوطن
ادوين جون ديفز	٢١ - فرنسا الجريحة على ضفاف النيل
هنرى بوردو	٢٢ - الابن الضال (أسرة روكفيار)
برنارد نيومان	٢٣ - أسرار الجاسوسية
روبرت هتشنز	٢٤ الى ٢٦ - بيلا دونا (سائحة في الاقصر) ٣ اجزاء
ليديا لامير	٢٧ - بوشكين (الشاعر العاشق)
	٢٨ الى ٣٢ - اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء)
لطائفة من المؤلفين	٣٣ - قصص من الصين
أونوريه دى بلزاه	٣٤ - ليالى بلزاه (ألف ليلة وليلة الفرنسية)

المؤلف

الكتاب

- ٣٥ الى ٣٧ - الاياداة (٢ أجزاء) ... هوميروس
- ٣٨ - قصص من روما ... البرتو مورافيا
- ٣٩ ، ٤٠ - المسبحة (جزآن) ... فلورنس باركلي
- ٤١ - سفينة المذات ... مورييس ديكيورا
- ٤٢ - دم . . وخمر ! ... تولستوى
- ٤٣ - تحت ظلال الليلا ! (قصة تركية طويلة) ... مبرورة سامي
- ٤٤ - ارواح هائمة ! ... سومرست موم
- ٤٥ الى ٤٧ - القلعة (٣ أجزاء) ... دكتور ا.ج. كرونين
- ٤٨ - هل تحبين « برامس » ... فرانسواز ساجان
- ٤٩ الى ٥١ - مرتفعات وينرنج (٢ أجزاء) اميلي برونتي
- ٥٢ ، ٥٣ - مدموازيل جوفر (جزآن) مرسيل بريفو
- ٥٤ - العذراء المقتونة ... هنرى باتاي
- ٥٥ ، ٥٦ - مياه الربيع (جزآن) ايفان تورجنيف
- ٥٧ - ضحكة في الظلام ... فلاديمير نابوكوف
- ٥٨ - ماريا ايفانوفنا ... الكسندر بوشكين
- ٥٩ - لوكرشيا بورجيا ... جوان هاسليب
- ٦٠ - كلهم ابناءى ، ومن فوق الجسر ... آرثر ميللر
- ٦١ ، ٦٢ - نيتوتشكا (جزآن) ... دستويفسكى
- ٦٣ - السحب الرائعة ... فرانسواز ساجان
- ٦٤ ، ٦٥ - الآلهة عطشى (جزآن) ... اناتول فرانس
- ٦٦ - قصص من تولستوى ... تولستوى
- ٦٧ - ماري نيتيوارت ... فريدريك شيللر
- ٦٨ - ألف ليلة وليلة الهندية ... لطائفة من المؤلفين
- ٦٩ - فانتة الكونفو ... شارل مرسيه
- ٧٠ - قاتل بلا أجر ... اوجين يونسكو
- ٧١ - قصص من « ايبانيز » ... بلاسكو ايبانيز
- ٧٢ و ٧٣ - الطريق الى بشر سبع (جزآن) ... ايثيل ماتين
- ٧٤ - أنا كارنينا ... تولستوى
- ٧٥ - حب . . ام شفقة ؟ ... ستيفان زهايج
- خارج السلسلة : دكتور جيفاجو
- (جزآن) ... باسترناك

شركة الخطوط الجوية العالمية TWA تعلن عن أسهل طريق للوصول إلى أمريكا

يُدفع المهاجر
١٠٪ مقدماً

والباقي يقتسط
على ٢٤ شهراً
رحلتان أسبوعياً
تليفون:

القاهرة ٥٩٧٦٠
الإسكندرية ٢٦٣٢٨



TRANS WORLD AIRLINES

محتويات الكتاب

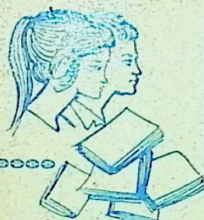
١ - قضية ضمير :

٨	...	...	...	...	هذه القصة
١٢	...	...	...	...	الفصل الأول : يوم مشير
٤٠	...	...	...	...	الفصل الثاني : ذكريات .. تشير القفاق
٥٥	...	...	...	...	الفصل الثالث : الحب الأول
٦١	...	...	...	...	الفصل الرابع : الندم
٧٨	...	...	...	...	الفصل الخامس : لوعه!
٨٦	...	...	...	...	الفصل السادس : قرار محتوم
٩٤	...	...	...	...	الفصل السابع : في السجن

٢ - قتلت زوجتي (لحن الى كرويتزر) ١٣١

	أخصائون في الطبوعات المأجلة	الشعب تصدر عن مؤسسة صحفية عربية	كتابي
الإدارة: ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١			
رئيس مجلس الإدارة المسيد إبراهيم	الطابع: الطبعة ٢٠١٨-٢٠١٩ دور الخامس - القاهرة ٨٤٤٨١٠	التوزيع: مكتبة دار الشعب	

عوامل هذا التحضير والاستعداد الأولي:



مكتبة الشباب

ولنتبرع عنها هذه السلاسل:

- ١- التراث العالمي للشباب
- ٢- التراث العربي للشباب
- ٣- قصص حياة الخالدين
- ٤- لكل سؤال جواب

كتابي ومطبوعاتي

يقدمان لك في الشهور القادمة - بالناويز - هذه الباقة من السلاسل الجديدة والأعداد الخاصة:



ألف قصة وقصة من آداب العالم

مصح شامل لأعظم ألف قصة قصيرة من آداب جميع العصور.



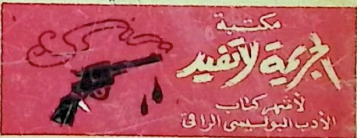
مكتبة أدب السينما

قصص أشهر الأفلام العالمية القديمة والحديثة، مزينة بالصور



مكتبة القصص الشعبي

أساطير فولكلورية من كل بقعة من العالم



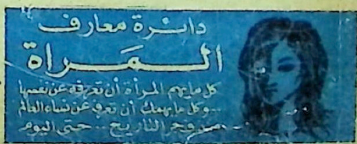
مكتبة الجريمة لاقتيد

لأشهر كتاب الأدب البوليسي الرافق



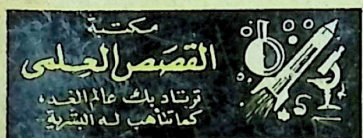
مكتبة القصص الواقعي

اعترافات برونها أصنامها وتجارب زويها أكرامها والعص



دائرة معارف المرأة

كل ما يهم المرأة أن تعرفه عن نفسها وكل ما يهمها أن تعرفه عن نساء العالم منذ فجر التاريخ حتى اليوم



مكتبة القصص العلمي

ترتاد بك عالم الغد، كما تذهب له البشرية



مكتبة الرسائل والأعترافات

لأشهر المفكرين والعلماء